في التنوير الإسلامي ١

الصحوة الإسلامية في عيون غربية

تأليف

د. محمد عمارة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

اسم السلسلة : فى التنوير الاسلامى
اسم الكتاب : الصحوة الاسلامية فى عيون غربية
تأليف : دكتور / محمد عمارة
تاريخ النشر : مارس ١٩٩٧
رقم الإيداع : ١٤٢٠٧ / ٩٦
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-14-0549-7
الناشر : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسى : ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة ٦ أكتوبر
ت : ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١
فاكس : ٠١١/٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع : ١٨ شارع كامل صدقى - الفجالة - القاهرة
ت : ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ - فاكس ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥
إدارة النشر : ٢١ ش أحمد عرابى (برج النهضة) المهندسين - القاهرة
ت : ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ فاكس : ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦

١

مصطلح الأصولية ؟؟

فى «الملف» الذى أعدته ونشرته مجلة (الوسط) - فى أعدادها السبعة - ٩٦ - ١٠٢ الصادرة من ٢٩ - ١١ - ١٩٩٣م إلى ١٠ - ١ - ١٩٩٤م - عن رؤية الاستشراق المعاصر للظاهرة « الأصولية » الإسلامية ، وخاصة فى العالم العربى . . طالعنا آراء ثلاثين مستشرقا ، من أبرز أعلام الاستشراق المعاصر - بل إن من بينهم من هم أبرز المستشرقين المعاصرين بإطلاق . .

كذلك مثل هؤلاء المستشرقون أهم شعوب الغرب ، المهتمة بالعالم الإسلامى ، والمتابعة لقضاياه . . وغطت تخصصاتهم مختلف ميادين وحقول علوم الاستشراق - الأكاديمى منها والسياسى . . الأدبى منها واللغوى . . الاجتماعى منها والاقتصادى .. الدينى منها والدنيوى . . القديم منها والحديث والمعاصر - كما غطت منطلقاتهم أغلب مناهج ومذاهب وفلسفات الغرب فى النظر والبحث والتحليل . . وأيضا تنوعت التجارب التاريخية والمعاصرة لشعوب هؤلاء المستشرقين وحكوماتهم وتفاوتت من نزعات وحملات الاستعمار لعالمى العروبة والإسلام . .

الأمر الذى جعل ويجعل لهذا «الملف» ميزة البلورة للصورة الغربية ، الأقرب إلى التكامل ، عن «الظاهرة الإسلامية» فى ديار العروبة والإسلام ، وفى المهاجر التى تعيش فيها أقليات إسلامية .

فهذا «الملف» ليس رأى مستشرق - مهما بلغ علمه . . وكان حظه من الإنصاف أو التحامل . . ولا رأى مؤسسة بحثية - مهما كان حظ موقعها من الصداقة أو العداوة . . ونصيب باحثيها من الموضوعية أو الذاتية . . وإنما هو «بانوراما» الرؤية الغربية - من روسيا إلى أمريكا - عبر إيطاليا وفرنسا وألمانيا وهولندا وأسبانيا وإنجلترا - . . فكأنه «العدسة الغربية اللاّمة» للظاهرة الإسلامية بعامة ، وفى العالم العربى على وجه الخصوص . . ويكفى - فى الدلالة على ذلك - أن تكون هذه «العدسة» قد جمعت رؤى «جاك بيرك» ، و «مكسيم رودنسون» ، و «دومينيك شوفاليه» و«بيارتييه» من فرنسا - و «هومى بابا» ، و «روبن أوستل» ، و«فردها ليداى» ، و «ديريك هوببود» ، - من إنجلترا - و «فيتالى ناوومكين» ، و «الكسندر سميرنوف» ، و «آرتور سعادييف» - من روسيا - و «بيدرو مارتينيث مونتانيث» ، و «كارمن رويث» ، و«مرثيدس ديل آمو» ، و «فرناندو دى أغريدا» ، و «رودولف بيترز» ، و «يان بروخمان» ، و «يوهانس نانسن» - من هولندا - و «روجر أوين» ، و «جون فول» ، و «جون إيسبوسيتو» ، و «ريتشارد بوليت» - من أمريكا - و «إيزابيلا كاميرا دافليتّو» ، و «فرانشيسكو غابرييلى» ، و «دانييلا آمالدى» ، و «أداليندا غاسبارينى» ، و«سلفاتورى بونو» ، و «كلاوديو لوياكونو» - من إيطاليا - و «جودرون كرامر» ، و «أردموته هيللر» ، و «ستيفان فيلد» ، و «أودو شتا ينباخ» ، - من ألمانيا - . .

يكفى أن تضم هذه «العدسة» رؤى أعلام الاستشراق هؤلاء ، لتكون - بحق - «عدسة لامّة» لرؤية الغرب «للشأن الإسلامى» الذى تصاعد الجدل حوله فى هذه السنوات . .

وبسبب من قيمة ومكانة هذه الرؤية الاستشراقية لأخطر شئوننا المعاصرة ، كانت الوقفة الجادة والمتأنية التى وقفتها حيال هذا «الملف» . . والتى أقدم معالمها إلى القارئ فى هذه الصفحات . .

* * *

ولقد آثرت فى دراسة هذا الملف ، والتقويم لوجهات نظر أصحابه ، أن أعتمد منهاج «التفكيك والتركيب» سبيلا «للتحليل والتقويم» . . الأمر الذى وضع ويضع يدنا على أهم المعالم التى رآها هؤلاء المستشرقون فى صورة «الحالة الإسلامية » ، ورسموها فى إجاباتهم على الأسئلة الثلاثة التى سألهم الإجابة عنها مراسلوا (الوسط) - فيصل جلول (فرنسا) ، عمار الجندى (بريطانيا ، الولايات المتحدة) ، إسماعيل زايد (هولندا) ، عرفان رشيد (إيطاليا) ، شوقى الريس ، طلعت شاهين (إسبانيا) ، إيغور تيموفييف (روسيا) ، عبد الفتاح خليل (ألمانيا) - . . وهى الأسئلة التى تقول :

١ - كيف تفسر الظاهرة الأصولية ، وما يحدث فى العالم العربى اليوم؟

٢ - ماهو ، فى رأيك ، انعكاس هذه الظاهرة على العلاقة بالغرب ، وعلى المهاجرين العرب والمسلمين؟

٣ - ما الذى يميز الحركات الأصولية بين بلد عربى وآخر ، وكيف ترون إلى مستقبل تلك الحركات عموما؟ .

ولقد أثمر «التفكيك . . والتركيب . . والتحليل» لإجابات المستشرقين على هذه الأسئلة . . أثمر «خارطة» الرؤية الاستشراقية للظاهرة الإسلامية ، تلك التى تميزت فى تضاريسها ومعالمها خمس قضايا :

أولها: قضية مصطلح «الأصولية» . . ومواقف المستشرقين من صدق تعبيره عن الحالة الإسلامية وحركاتها؟

وثانيها: قضية التنوع والوحدة فى فصائل الحركة الإسلامية وتوجهاتها . . حقيقتها؟ . . ومداها؟ . . وميادينها؟ ودلالتها؟ . .

وثالثها: الأسباب الفكرية . . والمادية – التاريخية . . والمعاصرة – الداخلية . . والخارجية – التى أفرزت وأثمرت وأبرزت هذه الحركات الإسلامية ، وهذا المد الإسلامى؟ . .

ورابعها: مشكل العلاقة بين المد الإسلامى وبين الغرب؟ . . ومدى ما فى الحديث عن خطر المد الإسلامى على الغرب من حقيقة أو وهم؟ . . ومن هو الصانع الحقيقى والأكبر «لصورة هذا الخطر»؟ . .

وخامسها: نظرة على المستقبل . . وهل لهذه الحركات الإسلامية من هذا المستقبل نصيب؟ . . وإن كان لها منه نصيب ، فما هو حجمه؟ . . وماهى الشروط التى لابد من توافرها حتى لا ينبذ هذا المستقبل تلك الحركات على «قارعة التاريخ» – وفق عبارة أحد المستشرقين – ؟ ! . .

تلك هى معالم «الخارطة» التى رسمتها إجابات ثلاثين مستشرقا – مثلوا مدارس الاستشراق الغربى . . وتيارات حضارته . . وألوان أيديولوجياته – ومرجعيات دياناته . . ومصالح دوله وقومياته وتكتلاته . . ودرجات ألوان الطيف فى علاقات هذا الغرب بوطن العروبة وعالم الإسلام– . .

وهى «الخارطة» التى أحسبها من أهم الصور التى رسمها علماء الغرب للظاهرة الإسلامية . . التى هى أعظم وأخطر ظواهر العصر الذى نعيش فيه . . والتى استحقت ، لذلك ، أن نقف أمامها وقفة جادة ، تليق بما بذل فيها من جهد ، وبما لموضوعها من آثار تزلزل واقعنا العربى والإسلامى زلزالا شديدا . . ! . .

مصطلح «الأصولية»:

لقد رفض أغلب المستشرقين إطلاق مصطلح «الأصولية» بمعناه الغربى، المحمل بالدلالات السلبية، على الحركات الإسلامية.. ورفضوا المساواة بين الإسلام - فى علاقته بالسياسة والدولة - وبين الديانات الأخرى.. وحتى الذين أطلقوا على «حركات العنف والراديكالية» الإسلامية مصطلح «الأصولية»، رفضوا التسوية بينها وبين أصوليات الديانات الأخرى.. وذلك، لدورها الإحيائى - الأخلاقى والروحى - .. ولبرامجها، التى تصنفها فى «حركات التغيير»، وليس فى «التقليد والجمود الأصولى» - كما هو حال الأصوليات الغربية - ولتميز مرجعيتها الإسلامية عن المرجعيات الدينية للأصوليات الأخرى..

ولفت كثير من المستشرقين الأنظار إلى ما أسماه أحدهم بـ«الأصوليات الليبرالية الغربية»، الطامعة فى اقتصاديات العالم الإسلامى وموقعه الاستراتيجى.. وإلى حملة هذه «الأصوليات الليبرالية» على العرب والمسلمين، وذلك بإلصاق مصطلح «الأصولية» - ذى المعنى السلبى - على الحركات المعارضة للنموذج الغربى - الذى فشلت تطبيقاته فى الواقع العربى - والمعارضة لنظم الحكم الفاشلة والعاجزة والفاسدة والتابعة، التى حكمت فى حقبة مابعد الاستقلال..

نعم.. رأى أغلب المستشرقين هذه الآراء.. ولما كنت على يقين من أن هذه الآراء التى ارتآها هؤلاء «العلماء الغربيون» ستصدم كثيرا من «مثقفينا المتغربين»، وستبرز التفاوت بين «علم الأئمة» و «جهل المأمومين».. !.. فلقد آثرت عرض آراء علماء الاستشراق

فى كل هذه القضايا بذات النصوص التى كتبوها ، والتى نشرتها (الوسط) فى هذا «الملف» الفريد! . .

فأبرز المستشرقين الغربيين - إن لم يكن عميدهم - «جاك بيرك» - يرفض إطلاق مصطلح «الأصولية» على الظاهرة الإسلامية . . ويدعو إلى التمييز ، فى المد الإسلامى ، بين عامة «المسلمين» وبين «الإسلاميين» ، الذين يحملون بديلا إسلاميا للمدرسة الغربية ونموذجها فى التحديث . . فيقول : «أنا أرفض تعبير «الأصولية» ، لأنه آت من النزاعات داخل الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية . . هناك مسلمون (العامة) ، وهناك الإسلاميون الذين يشددون على قدرة الإسلام على إيجاد حلول مناسبة لمشاكل الحياة اليومية ، وقدرته على بناء دولة ومؤسسات وهؤلاء لا يقفون عند الطبيعة الدينية للإسلام فقط . هذه أطروحة من نسميهم الإسلاميين . . إنها حركات تسعى إلى تقريب العالم العربى من منابعه . . ولديهم خطابات تجعلهم مختلفين بعضهم عن بعض ، لكنهم يلتقون فى الدعوة إلى الرجوع إلى الأصول ، وبخاصة إلى القرآن ، ويدعون إلى إعادة تأصيل القرآن باعتباره قادرا على تقديم الحلول للمشاكل التى يطرحها العالم المعاصر . يطرحون ذلك فى مواجهة المجتمعات التى وضعت نفسها منذ ١٠٠ سنة فى مدرسة الغرب ولم تحقق النجاحات المطلوبة» . .

فالظاهرة الإسلامية - فى رأى «جاك بيرك» - ليست «أصولية» - بالمعنى السلبى الغربى لهذا المصطلح - وإنما هى حركات إسلامية تسعى إلى تقريب مجتمعاتها من منابعها ، وإقامة دولة ومؤسسات تقدم حلولا لمشكلات العصر ، إنطلاقا من مرجعية

القرآن ، بدلا من مرجعية المدرسة الغربية التى لم تحقق النجاحات المطلوبة على امتداد المائة عام الماضية . .

ومع «جاك بيرك» تقف الأغلبية الساحقة من المستشرقين - الذين استطلعت (الوسط) آراءهم- فـ «روجر أوين» - أمريكا - يرى أن مصطلح «الأصولية» مصطلح غربى ، أسىء استعماله عندما أطلق على الحركات الإسلامية العنيفة ، ويقول : « أرى أن كلمة الأصولية أسىء استعمالها لوصف الفاعلية الدينية الإسلامية (العنيفة) فى الشرق الأوسط ، وكانت صيغت أصلا فى الغرب لوصف حركة قامت أوائل القرن الحالى ، وتميزت برفضها عددا من مظاهر الحياة الحديثة المعاصرة . .» .

فهو يرفض وصف «الأصولية» - بالمعنى الغربى - حتى لحركات العنف والراديكالية الإسلامية! . .

ويضيف «جون إيسبو سيتو»- أمريكا - إلى هذا الرأى ، التنبيه على خطأ اعتبار الإسلام معادلا للأصولية ، بالمعنى الغربى ، فيقول : «من الخطأ اعتبار الإسلام معادلا للأصولية . . واعتبار الأصولية مرادفة للتطرف والإرهاب» . .

أما «هومى بابا» - بريطانيا - فإنه يضيف إلى هذه الآراء حقيقة ملفتة للأنظار ، وذلك عندما يتحدث عن وجود «أصولية ليبرالية» غربية هى التى تقود حملة إلصاق مصطلح «الأصولية» - بمعانيه الغربية السلبية - على الظاهرة الإسلامية فى العالم العربى ، لتفتعل منه عدوا بديلا للشيوعية ، فيقول : «الأصولية : كلمة ذات دلالة سلبية تلصق بالعالم العربى . . مع أن الظاهرة عالمية . .بل هناك الإرث التحديثى ، الذى غدا «أصولية ليبرالية ديمقراطية» نجدها فى الولايات المتحدة ومعظم الدول الأوربية . . والأصوليون

الليبراليون الديمقراطيون ، الذين ابتهجوا بموت الشيوعية وانتصار القيم الرأسمالية الليبرالية ، يواصلون الترويج للعالم الإسلامى كبديل من «إمبراطورية الشر» السوفياتية ، واهتمامهم بالوطن العربى يعود أساسا إلى غناه بالثروات الطبيعية والاستراتيجية ، كما سيتابعون مطالبة المهاجرين ، من مسلمين وغيرهم ، بالتخلى عن تاريخهم وثقافتهم والاندماج بالشعب «المضيف» ، أو بتحمل معاناتهم على يد العنصرية المؤسساتية والعامة» . .

فنحن - برأى المستشرق البريطانى - أمام «مؤامرة» «أصولية ليبرالية غربية» على ثروات العالم العربى وموقعه الاستراتيجى وثقافته وتاريخه . . وهى تتوسل إلى تحقيق مقاصدها بهذه الحملة التى تلصق بالعرب وبالمهاجرين العرب الصفات السلبية لمصطلح «الأصولية»! . .

أما «روبن أو ستل» - بريطانيا - فيرى فى مصطلح «الأصولية» مصطلحا عاجزا عن التعبير عن التنوع الموجود فى الظاهرة الدينية الإسلامية ، فيقول : «لدى - مثل كثيرين - مشكلة مع عبارة «الأصولية» ، فهى تفتقر إلى التحديد والدقة ، وتستخدم على نحو سائب جدا فى وصف أفراد وجماعات وحركات شديدة الاختلاف فى العالم الإسلامى ، مثل :

(ا) الصحوة الدينية منة سنة ١٩٧٠م فى دول جميع مواطنيها أو معظمهم مسلمون .

(ب) الأيديولوجيا السياسية الجبارة التى قبضت على بعض بلدان العالم العربى خلال السنوات العشرين الأخيرة حتى صار الإسلام سمة رئيسية للخطاب السياسى . .

(جـ) الرغبة فى وضع الشريعة من جديد موضع التطبيق .
. . إن الصورة المألوفة للأصولى هى نمطية مكرسة واختزالية ، وهى عاجزة حتى عن إيضاح التنوع الموجود فى الأصولية ذاتها . .»! . .

ومن روسيا ، يرى «فيتالى ناوومكين» : أن وصف «الأصولية» ، بمعناه السلبى الغربى ، لا ينطبق على الواقع الإسلامى . . وأن سلبيات الحركات الإسلامية هى «التطرف» أما إيجابياتها فهى : العودة إلى الأصول الدينية ، والأصالة الشعبية ، ومحاولة إيجاد طريق خاص لتطور المجتمعات العربية والإسلامية . . فيقول : «مصطلح الأصولية الإسلامية» : مصطلح أطلق فى الغرب ، ولا ينطبق بدقة على الحياة الواقعية . ففى الأصولية نفسها شحنة إيجابية وشحنة سلبية . ومن الأصح الحديث عن ظاهرة التحرك الإسلامى أو الإسلام السياسى ، مع الانحراف نحو التطرف – وهو ما يقصده عادة أولئك الذين يضمنون مفهوم «الأصولية» معنى سلبيا . أما الأصولية نفسها ، كعودة إلى الأصول الدينية ، وأصالة هذا الشعب أو ذاك ، ومحاولات لإيجاد طريق التطور الخاص ، فقد يكون له طابع إيجابى أيضا» . .

فنحن – برأى «فيتالى ناوومكين» – أمام ظاهرة «التحرك الإسلامى أو الإسلام السياسى» . . ولسنا أمام «أصولية» بالمعنى الغربى . .

أما المستشرقة الإسبانية «كارمن رويث» ، فإنها تنتقد استخدام مصطلح «الأصولية» ، للتعبير عن الظاهرة الإسلامية ، لأنه مصطلح غامض ، لا يميز استعماله بين الأصولية التى تمثل الأصالة الحضارية ، وبين رد الفعل الراديكالى على العدوان الواقع على الذات الحضارية من الخارج والداخل . . وترى أن الأصولية ، بمعناها

الشائع ، تتعارض مع روح الدين الإسلامى . . ثم تدعو إلى التمييز بين «أصوليات الدول» ، التى تتحالف مع القوى الخارجية ، وبين «أصوليات الجماعات» ، التى تختلف من بلد إلى آخر . . فتقول : «إن لفظة «أصولية» مشوبة ببعض الغموض ، فهى أحيانا يراد بها التمسك بمبادئ أخلاقية لا يجوز التخلى عنها ، وأحيانا أخرى تأتى رديفة للراديكالية السياسية من حيث كونها نمطا أو شكلا لعلاقة بين مواطنين فى مجتمع واحد ، أو بين دولة وأخرى على الصعيد العالمى . . الأصولية هى الفرع الدينى الطالع من جذع الأصالة بمفهومها الحضارى العام . . والأصولية الراديكالية هى ردة فعل بدائية للدفاع عن الذات إزاء شتى أشكال العدوان والظلم الخارجيين والداخليين أحيانا . . وهى تتعارض أصلا مع روح الدين الإسلامى . وهناك أصوليات الدول ، التى تتحالف عادة مع القوى الأجنبية . . وأصوليات الجماعات التى تختلف من بلد إلى آخر ، وفيما بينها ضمن بلد معين . .»

وعلى درب الدعوة إلى التمييز بين «الدين» وبين «الأصولية» بالمعنى الغربى ، تمضى المستشرقة الإيطالية «إيزابيلا كاميرادا فليتّو» . . فالحركات الأصولية ، بالمعنى الغربى ، هى حركات فاشية رجعية تستخدم الدين درعا وشعارا للتأثير فى الناس . . فتقول : «لا أرى ضرورة موضوعية أو فلسفية للربط بين الدين والظاهرة الأصولية ، التى هى نتاج منطق سياسى . فأنا أفضل ، فى هذه الحالة ، الحديث عن حركات سياسية ذات طابع رجعى أو حتى فاشى فى بعض الأحيان ، تستخدم الدين درعا وشعارا للتأثير على ذهنية الناس . وهذه الحركات ليست محصورة فى العالم الإسلامى فحسب ، بل هى موجودة فى الغرب أيضا . .»

أما المستشرق الألمانى «أودو شتا ينباخ» ، فيرى أنها حركات «إسلاموية» - وليست أصولية - لأنها حركات سياسية ، تسعى للاستيلاء على السلطة كى تطبق مبادئ الدين . . «إنها حركات سياسية . . هدفها الاستيلاء على السلطة ، لتطبيق مبادئ الدين . . فالدين يتحول ، مع الأصوليين ، إلى نوع من الأيديولوجيا . . لذا ترانى أقترح ، عوض «الأصولية» ، مصطلحا آخر هو «الإسلاموية» . .» ! . .

وإذا كان المستشرق الفرنسى الشهير «مكسيم رودنسون» ، قد استخدم المصطلح - «الأصولية» . . ، فلقد دعا إلى تمييز الأصولية الإسلامية عن الأصوليات الدينية الأخرى ، وذلك لتميز الإسلام عن الديانات الأخرى ، بأنه دين ودولة ، فله أصول فى الدولة والسياسة . . «إن الأصولية الإسلامية متميزة عن الأصوليات الأخرى- وخاصة المسيحية - بسبب تميز الإسلام ، ، فليس فى المسيحية دولة . . أما الإسلام فالأمر فيه مختلف . . كانت لديه فى «المدينة» سلطات سياسية كاملة وسلطات روحية ، وكان يرد على كل أنواع الأسئلة التى تطرح ، ويقدم حلولا للمشاكل من كل نوع . . وحتى عندما اختلف الوضع ، ظل نموذج «المدينة» موجودا على الدوام ، وفى كل الظروف التى ساءت فيها الأوضاع ، كان التفسير الذى يقدم هو أن ما أصابنا سببه ابتعادنا عن الأصول . .» .

ونفس الرأى - الذى يميز بين الإسلام والديانات الأخرى - يراه المستشرق الهولندى «يان بروخمان» ، الذى يقول : «من الناحية النظرية كل المسلمين أصوليون ، كما أن الإسلام هو دين ودولة ، أما من الناحية العملية ، فالأمر ليس كذلك . وإذا أخذنا مصر كمثال ، نرى أنها دولة إسلامية إداريا ، ولكنها ليست ثيوقراطية

على الطراز المألوف ، بل دولة مدنية . وإذا أردنا رصد العلاقة بين الدين والسياسة فى العالم الإسلامى ، نجد أن الإسلام كدين مرتبط بشكل لافكاك منه بالسياسة . والسبب يرجع إلى التاريخ الإسلامى ، ونشأة هذا الدين ، فهو بدأ كدولة ثم انتشر . .»

فنحن أمام تميز مصدره الإسلام ذاته ، وإذا كانت الأصولية بالمعنى الغربى رفضا للدولة المدنية ، ودعوة إلى دولة ثيوقراطية ، فإن الدولة الإسلامية هى دولة مدنية مرجعيتها دين الإسلام! . .

أما المستشرق الفرنسى «دومينيك شوفالييه» ، فهو يضيف إلى نفى الشبه بين الأصولية الإسلامية والأصولية المسيحية - التى يراها متميزة بالتطرف! . . يضيف وجهة نظر تقول : إن الظاهرة الإسلامية هى حركة إحياء وتجديد دينى ، تستهدف التحرير - فى الأخلاق والسياسة معا - . . وهى ليست بنت السنوات الأخيرة ، فالعودة إلى الأصول والينابيع قد عرفها العرب والمسلمون منذ تيار الإحياء الدينى الذى قاده محمد عبده ورشيد رضا . . «فالأصولية الإسلامية لا تشبه الأصولية المسيحية ، والأخيرة تميزت بالتطرف . والفكر الإسلامى الأصولى يقدم نفسه بوصفه عودة إلى الأصول ، وهذه الظاهرة ليست جديدة . إن الفكر العربى والإسلامى ، منذ نهاية القرن التاسع عشر ، يستند إلى مبدأ الرجوع إلى الينابيع ، وبعض مفكرى الأصوليين والحركات الإسلامية يرجع اليوم إلى من سبقه فى هذا المجال ، أعنى بذلك محمد عبده ، ورشيد رضا ، أو آخرين . فالحركة الأصولية الإسلامية مختلفة تماما عن الأصولية الكاثوليكية بزعامة المونسنيور لوفيفر ، ولا مجال للمقارنة بين الحركتين ، وإذا كان لابد من مقارنة ما ، فإن هذه المقارنة تصلح مع حركات التحرير الدينية التى ظهرت فى أمريكا اللاتينية . . لقد

نمت الحركات الإسلامية كحركات أخلاقية وسياسية فى آن ، وهى تلعب دورا على المسرح السياسى» . .

فهى إذن حركات إحياء دينى ، والسياسة بعد من أبعادها . .

ومع هذا التحليل يقف المستشرق الإيطالى «سلفاتورى بونو» ، الذى يرى فى الأصولية الإسلامية دعوة إلى العودة لجوهر الدين والأصول والجذور ، واعتماد المبادئ الأساسية للإيمان ، ووضع كل ذلك فى ممارسة إنسانية جادة . . أما «التطرف والعنف والإرهاب» ، فإنها «الصورة» التى يصنعها الإعلام ، ويقدمها على أنها الأصولية الإسلامية ! . . «إن أى معرفة موضوعية ، وأبسط نظرة إيجابية إلى الموضوع ، تقتضى رفض ما سعت أجهزة الإعلام إلى ترسيخه فى أذهان الناس ، من ربط بين الأصولية الإسلامية ومعانى التطرف والعنف ، وحتى الإرهاب . فالأصولية جوهرها الدين ، وأساسها العودة إلى الأصول والجذور ، واعتماد المبادئ الأساسية للإيمان ، وذلك لتأكيد هذه المبادئ وممارستها بجد وصراحة . ويصح هذا أيضا على الديانات السماوية الأخرى التى شهدت عبر تاريخها اتجاهات وحركات أصولية» .

وهو نفس ما يقوله المستشرق الروسى «الكسندر سميرنوف» : «لا يجوز الخلط بين الأصولية الإسلامية والتعصب أو التطرف ، لأن الأصولية تعبر عن مفهوم أوسع»

وإذا كانت الأصولية – برأى المستشرق الأمريكى «جون فول» – هى محاولات تغيير اجتماعى ينسجم مع العقيدة والإيمان والتقاليد العريقة . . فإنها ليست كلها رجعية ومحافظة ، ولا هى دائما عنيفة وراديكالية . . ففيها ظواهر عديدة ، تتعدد بتعدد المناهج والتجارب ، فى الواقع المتغير ، محليا وعالميا . . «فالأصولية ، فى العالم الراهن ،

ليست ظاهرة واحدة ، بل تجتمع تحت تلك التسمية مجموعة من التجارب و «الظواهر» التى تعكس مناهج عدة فى مقاربة الطبيعة المتغيرة للمجتمعات المحلية والعالمية . . ولا يجوز اختصار الأصوليات إلى نزعات محافظة تبغى إيقاف التطور ، كما أنها ليست فقط مساعى رجعية ، القصد منها هو إعادة عقارب الساعة إلى الوراء ، إلى ظروف اجتماعية - سياسية منقرضة . بل إنها محاولات تهدف إلى تغيير المجتمع ، بشكل ينسجم مع تصورات معينة ، وتقوم هذه التصورات على تقاليد عريقة ، وعلى المكانة التى تحتلها العقيدة والإيمان فى مجتمع ما . وقد تكون هذه الجهود ، الساعية إلى التغيير ، راديكالية فى بعض وجوهها ، تميل إلى العنف ، وربما كانت أحيانا أخرى برامج هادئة لتحول اجتماعى سلمى . . إنها تختلف من حيث الوسائل التى تلجأ إليها للتغلب على الظروف المكرسة : الهجرة ، أو الإصلاح والتجديد . .» .

فالأصولية - فى هذا الرأى - : حركة تغيير اجتماعى ، مرجعيتها الدين والإيمان الدينى السائد فى المجتمع . . فهى إصلاح وتجديد ، تختلف وسائله باختلاف التحديات التى تواجهها .

أما المستشرق الإيطالى الشهير «فرانشيسكو غابرييلى» ، فإنه يفضل «الأصولية» على «القومية» . .

فالأصولية الإسلامية تدعو إلى «الكونية الإسلامية» ، فهى أكثر إنسانية وأوسع أفقا من القومية ، التى تقف اهتماماتها عند شعب واحد بعينه . . والخيار الدينى- عنده - أفضل من الخيار القومى ذى الطابع الغربى . . وإذا كنا نرفض من الأصولية «العنف» ، فإن القومية ليست أقل عنفا من الحركات الأصولية . . «إن «النظرية» الأصولية . . تنطوى ، بشكل من الأشكال ، على بعض الإيجابية ،

قياسا إلى الحركات القومية البحتة التى تتميز بها بعض الدول الغربية . «الأصولية» تنادى إلى «الكونية الإسلامية» ، وهى تعبير عن الرغبة فى لم شمل كل الشعوب ، لاشمل شعب واحد بذاته . من جانب آخر ، ليس بإمكاننا أن نغض الطرف عن أحد المظاهر التى تمتاز بها الحركة الأصولية ، أى «العنف» الذى يبرز فى حالات كثيرة . فهذا المظهر يحول الحركات نفسها إلى سبب وحافز للقلق . لكن الرغبة التى يعلن عنها بعض الحركات الأصولية فى تطبيق مبادئ الدين ، بغض النظر عن الاختلافات والتباينات القومية والاجتماعية ، أمر يمثل خيارا إيجابيا ، وأنا - (والكلام لغابرييلى) - أفضله فى بعض الأحيان ، على خيارات ليست أقل عنفا من الحركات الأصولية نفسها» .

ومن إيطاليا - أيضا - يأتى رأى المستشرق «كلاوديو لوياكونو» ، الذى يرفض فى الأصولية التعصب ورفض الآخر . . ويتحدث عن إيجابياتها - وهى عنده أكثر من السلبيات - وذلك من مثل الدعوة إلى العدل والحرية والأصالة فى الهوية الثقافية والروحية . . فيقول : « ظاهرة الأصولية فيها إيجابيات كثيرة . . منها التعطش إلى العدالة والحرية ، ومعاداة أشكال الديكتاتورية والسلطوية ، والسعى إلى استعادة الأشكال التقليدية التى تأقلمت مع أصعب الظروف ، وصمدت مع مرور الزمن ، فى كثير من البلاد العربية والإسلامية . وما يلفت النظر أيضا ، ويثير الإعجاب بين تجليات الأصولية التى نتفق معها : نزعة المحافظة على الهوية الثقافية والروحية الخاصة ، والرغبة فى تحقيق ذلك ضمن إطار اجتماعى أقل ظلما وعسفا . . أما الملامح السلبية التى تثير الاستنكار ،

فتتلخص فى حالة التعصب ، ورفض من يمتلك آراء ثقافية وقيما فكرية مغايرة ومختلفة» .

وعلى حين يتفق المستشرق الألمانى «ستيفان فيلد» مع الذين يرفضون التسوية بين الإسلام والأصولية . . فإنه يدعو إلى عدم اختصاص الأصولية بالمسلمين وبالعالم العربى ، ففى الغرب أصولية أكثر عنفا «فالأصولية ليست ظاهرة إسلامية فقط ، إنها أيضا ظاهرة مسيحية ويهودية . . وهى ليست حكرا على منطقة محددة . . وإذا ما كانت الأصولية فى العالم العربى والإسلامى ترفض العنف فى الخطاب العلنى وتمارسه فى الخفاء ، فإن الأصولية الجديدة فى ألمانيا - التى تحرق الأتراك أحياء فى بيوتهم - تقر بالعنف فى القول وفى الفعل . وعلينا أن نتحاشى كليا الربط بين الدين الإسلامى وبين أفراد وزعماء ، مثل الخمينى أو غيره ، ذلك أن الإسلام أكثر شمولية من أن نحصره فى أى شخص أو أى مفكر . ثم إن التراث الإسلامى متعدد ومتنوع ، فيه المعرى وابن رشد وابن خلدون وابن تيمية وابن عربى والجاحظ وغيرهم . . لذا يتحتم علينا أن نخرج الإسلام من الدوائر الضيقة التى يحصره فيها البعض . .» .

أما المستشرق الهولندى «يوهانس يانسن» فإنه يرى فى الأصولية دعوة لتسطيح الدين واختزال روحانيته الواسعة الشاملة ، وتحويله إلى مجرد أيديولوجيا تتطلع إلى إجراء تغييرات فى نظام الحكم . . وهو يراها كذلك فى كل الديانات . . «فالظاهرة الأصولية - فى كل الديانات - هى دعوة لتسطيح الدين وتقليصه من تقاليد روحية واسعة شاملة إلى أيديولوجيا محددة ، تتطلع إلى إجراء تغييرات فى نظام الحكم» . .

وتشذ معه - عن ما يشبه الإجماع من المستشرقين الذين شاركوا في «الملف» - فتسوى بين الأصولية العربية والأصوليات الأخرى - المستشرقة الإيطالية «آداليندا غاسباريني» ، التي تقول : «ليس هناك اختلاف جوهري بين الأصوليات العربية والأصوليات التي ظهرت وتظهر في أوربا أو في أمريكا ، فكل هذه الظواهر ردود فعل تتمسك بزمن غابر ، متخلف ، قياسا إلى الواقع المعاش» . .

على حين تراوحت آراء كل الذين عرضوا رأيهم في مصطلح «الأصولية» ، بين رفض إطلاقه على الظاهرة الإسلامية . . أو قبول إطلاقه مع التأكيد على تميز الأصولية الإسلامية عن غيرها . . وذلك لما رأوا فيها من دعوة إلى الإحياء الديني هي أوسع من الإسلام السياسي ومجرد الأيديولوجيا . . ولما لحوا في برامجها من دعوة إلى التغيير ، ومحاولة لتحرير الذات العربية والإسلامية من قهر النموذج الغربي الذي سعى ويسعى لإلغاء ثقافة المسلمين وتاريخهم . . ولما قالوه عن تميز مرجعيتها - الإسلام - عن المرجعيات الدينية الأخرى ، بماله من علاقة بالدولة والسياسة ، ومن ثم قيامه بدور النموذج لكل حركات الإحياء والتجديد الإسلامية على مر تاريخ المسلمين . .

تلك هي وقفة الاستشراق الغربي المعاصر أمام مصطلح «الأصولية» ، في علاقته بالحركات الإسلامية . . وهي درس في «الفكر الغربي» نجد أنفسنا مدعوين إلى أن نتعلم منه الكثير؟! :

٢

أسباب صعود المد الإسلامى

كانت القضية الرئيسية الثانية ، فى «ملف» (الوسط) - الذى استطلعت فيه آراء علماء الاستشراق فى الظاهرة الإسلامية - «الأصولية» - هى : الأسباب التى أثمرت وأبرزت هذه الظاهرة ، على نحو غير مسبوق فى التاريخ العربى والإسلامى الحديث ؟؟ .

ولقد طوف كثير من المستشرقين حول هذه القضية فجاءت إجاباتهم - مجتمعة - لتحيط بكل الأسباب الذاتية والموضوعية . . الداخلية والخارجية . . الحضارية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسكانية . . إلخ . . إلخ . . بحيث لم تغادر إجاباتهم سببا من الأسباب - الرئيسية أو الثانوية - التى أفرزت وأبرزت المد الإسلامى على هذا النحو المثير ! . .

ولقد كان هناك ما يشبه الإجماع بين المستشرقين على أن العالم العربى والإسلامى يعيش أزمة عميقة ، حضارية وثقافية وحياتية ، فتحت الطريق أمام المد الإسلامى ، وساعدت على تعاظمه ، باعتباره «البديل الإسلامى» ، المناسب لذاتية الأمة وهويتها ، الرافض لتقليد النموذج الحضارى الغربى فى التحديث . . وذلك ، بعد فشل النموذج الغربى العلمانى - بشقيه : الليبرالى الرأسمالى . . والشمولى الاشتراكى - فى تحقيق مقومات النهوض للعرب والمسلمين فى أى من ميادين النهوض . . وفشل نظم

الحكم ، التى حكمت فى حقبة ما بعد الاستقلال ، فى حل الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وذلك لتقليدها للنموذج الغربى ، وغرقها فى الفساد والاستبداد . . وكرد إسلامى على الإذلال الاستعمارى للقوميات الإسلامية ، الذى حاول تجريد هذه القوميات من ثقافتها وتاريخها . .

نعم . . كان هناك ما يشبه الإجماع على هذه المعالم للأزمة الحضارية التى يعيشها العرب والمسلمون ، والتى أفرزت وأبرزت هذا «البديل الإسلامى» ، الذى تعلقت به الجماهير عندما بشرتها به الحركات الإسلامية المعاصرة . .

فالمستشرق الأمريكى «جون إيسبوسيتو» يرى هذه الظاهرة طبيعية تماما . . ففى سياق الإحياء الدينى العالمى ، والشامل لمجتمعات وديانات عديدة ، يجب أن نفهم الصحوة الإسلامية ، التى لا ترفض «التحديث» بإطلاق ، وإنما ترفض «التغريب» والتبعية للغرب ، وتقدم بديلا دينيا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا فى الميادين التى أخفقت فيها الحركة العلمانية ، وبديلا لفساد الطبقة الحاكمة . . ويقول : «إن الصحوة الإسلامية نابعة من الأزمة السياسية والاجتماعية والدينية التى يشهدها العالم الإسلامى . . وهذه الأزمة تشهد قضايا دينية وثقافية . . وأخرى تتعلق بالهوية الوطنية ، والشرعية السياسية ، والفشل الاقتصادى ، وتأثير التبدل السريع ، إضافة إلى مسائل فساد الطبقة الحاكمة ، ووضع حقوق الإنسان . ويخطئ من يعتبر «الأصولية الإسلامية» مجرد تعبير عن رفض التحديث ، فهذه نظرة تفتقر إلى الدقة ، ذلك أن الأصولية لا ترفض غالبا إلا بعض جوانب الحداثة . فهى ، فى وجه من وجوهها ، رد فعل على إخفاق الحركة العلمانية ، وعلى إسراف

الحكومات فى الاتكال على الغرب أو فى سياساتها القائمة على «التغريب» . وفى هذا السياق لابد من أن نلاحظ بروز طريق ثالثة ، أو رؤية بديلة ، تتمثل فى أولئك الذين لم يمنعهم تعليمهم الحديث (والغربى) من اختيار التوجه الإسلامى . ومن الضرورى أن نضع الصحوة الإسلامية ، أو الأصولية الدينية ، فى سياقها العالمى ، ففى مناطق وديانات عدة يلاحظ المرء حضورا جديدا متعاظما للدين فى الحياة الخاصة والعامة ، كما أن الصحوة الإسلامية ظاهرة ذات وجوه مختلفة ومتعددة . .» .

والمستشرقة الإيطالية «دانييلا آمالدى» ترى فى مقدمة أسباب تعاظم المد الإسلامى : عجز الأيديولوجيات الغربية ، والحلول الاشتراكية والرأسمالية المستوردة من البلاد الاستعمارية ، عن حل الأزمات ، وعن الإجابة على المشاكل فى العالم الإسلامى ، فلم يبق سوى «المسجد» نقطة وحيدة للضوء ، ومكانا للقاء ، قادرا على إحياء الآمال كى تنبض من جديد فى قلب الثقافة العربية والإسلامية «لقد عجزت الأيديولوجيات الغربية عن توفير إجابات لمشاكل العالم الإسلامى ، ولم تتمكن المذاهب الاشتراكية والرأسمالية من توفير حلول لأزمات الشعوب الإسلامية ، تماما كما عجزت عن توفير الحلول للشعوب الأخرى . وولدت هذه الأفكار ردود فعل سلبية جدا ، لأنها بالإضافة إلى عجزها ، كانت مستوردة من بلاد استعمارية ، قديمة وجديدة . فى الوقت ذاته لم تتمكن القوى السياسية المحلية ، فى العديد من البلدان الإسلامية ، من العثور على مخارج مناسبة للأزمات التى تعانى منها بلادها ، ولأزمات المنطقة . وأعتقد أن «المسجد» أصبح ، فى ظل وضع كهذا ، نقطة الضوء واللقاء الوحيدة القادرة ، فى أضعف

الاحتمالات ، على حل الإشكالات الوجودية ، وإحياء الآمال كى تنبض من جديد فى قلب الثقافة العربية والإسلامية . .» .

وتتبنى المستشرقة الألمانية «جودرون كرامر» وجهة نظر مماثلة ، فترى فى الحركات الإسلامية البديل - المؤمن بعلاقة الدين بالدولة - للفشل السياسى والاقتصادى والثقافى الذى وقعت فيه نظم ما بعد الاستقلال - الليبرالية منها والاشتراكية - تلك التى لم تحقق شيئا من الليبرالية ، وتحولت الاشتراكية على يديها إلى تخريب للمؤسسات وحكم بالحديد والنار ، وعبادة أشخاص الحكام بشكل لايطاق . . «إن المسألة الأصولية تحيلنا بالدرجة الأولى إلى العلاقة بين الدين والدولة . فبعض الأنظمة العربية فشلت فى بناء الدولة الحديثة ، دولة القانون والمؤسسات . والأنظمة التى ادعت الليبرالية لم تمارس ولو عنصرا واحدا من عناصر الليبرالية كما هو متعارف عليها . أما تلك التى ادعت الاشتراكية ، فقامت بتخريب المؤسسات ، وحكمت شعوبها بالحديد والنار ، وفيها مورست عبادة الشخص بشكل لايطاق . ولم يكن هذا الفشل سياسيا فحسب ، بل كان اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا . . ومن الطبيعى أن يبحث الناس عن حل للأزمات المتتالية ، فإذا بالأصوليين يرتأون أن الحل الوحيد هو تطبيق الإسلام» .

أما المستشرقة الإيطالية « آداليندا غاسبارين» ، فإنها توجز أسباب هذا المد الإسلامى فى : عمى السياسة الاستعمارية وعجز العلمانية عن علاج مشكلات الناس وتخفيف عذاباتهم ، والخواء الثقافى . . فهذه الأسباب قد فتحت أمام الأصولية طريق النمو والتطور ، لتستجيب لحاجات الناس ، باحتواء وامتصاص

عذاباتهم . «فالحركات الأصولية تنمو عادة فى التربة التى غابت عنها الثقافة . وإذا ما أمعنا النظر فى الواقع العربى ، نجد خواء فادحا فى بعض المجالات ، هو نتيجة عمى السياسة الاستعمارية الغربية . ويتعمق هذا العمى السياسى عندما نتصور بأن الهاوية بعيدة عنا . كما أن الأصولية تستجيب لحاجات الناس باحتواء وامتصاص العذابات ، وهى قدرة عجزت الثقافة العلمانية عن امتلاكها والاستجابة إليها» .

ويعلل «جاك بيرك» تعاظم هذه الظاهرة بالتغير الذى حدث فى موازين النماذج الحضارية ، ففشل النموذج الغربى هو الذى استدعى البديل الإسلامى «لأن الانتساب إلى مدرسة الغرب لم يعط نتائج جيدة ، ولأن تقليد الآخر ليس أمرا حسنا فى حد ذاته ، إذن يجب البحث عن الحلول فى إطار ذاتى . . وليس تطبيق حلول الآخر على الذات . . لقد قلدت المجتمعات العربية والإسلامية ليبرالية الغرب ، وسقطت فى الفساد . وقلدت الاشتراكية ، ووقعت فى البيروقراطية والطغيان . وفى مواجهة ذلك يمكن فهم عودة هذه المجتمعات إلى نفسها ، وبالتالى العودة فى الظرف الحالى إلى ماهو أقرب إليها ، أى إلى الدين» .

وينبه «مكسيم رودنسون» على أن العالم العربى ، منذ فجر محاولات نهضته الحديثة ، كانت تتنازعه دعوتان إلى مشروعين للنهوض . . مشروع علمانى غربى ، ومشروع إسلامى . . فلما أصاب الإحباط المشروع الغربى ، وتراجعت قواه ، فتح الطريق أمام البديل الإسلامى ، فتعاظمت قواه . . «ففى العالم العربى ، كما فى أماكن أخرى ، نشأ إحباط تجاه الأيديولوجيات السياسية والاجتماعية الكبرى التى انتشرت فى نهاية القرن التاسع عشر

ومطلع القرن العشرين . . الليبرالية البرلمانية . . والاشتراكية أو الشيوعية . . وفقدت صدقيتها . . هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، كانت مجموعات فى العالم الإسلامى تقول دائما : إن حل مشكلات العصر يتم عن طريق الإسلام . ويطالبون بالعودة إلى صدر الإسلام . . وكان هناك على الدوام فى كل العصور من يطالب بالعودة إلى هذه الحقبة . . وعندما توافرت الظروف المناسبة ، برزت المجموعات التى تنادى بهذا النوع من الحلول ، مستفيدة من الإحباط الذى أصاب الأيديولوجيات السياسية والاجتماعية الغربية ، آملة بتسلم السلطة عندما تحين الفرصة . .»

ويشير المستشرق الفرنسى «دومينيك شوفالييه» - فى رصد أسباب تعاظم المد الإسلامى - إضافة إلى أزمة الأيديولوجيات الغربية - إلى المواجهة الإسلامية مع الحضارة المادية ، وإلى الدور المتميز للمسلمين حضاريا ، وإلى البطالة والفساد فى الواقع العربى ، وإلى الصراع العربى - الإسرائيلى . . فهذه الظاهرة الإسلامية «متصلة بالتحولات العالمية التى طرحت سؤالا على العرب والمسلمين : كيف يمكن للإسلام ، كدين أو كحضارة ، أن يتحمل مسئولياته فى العالم الحديث؟ كيف يمكن أن يتحول المسلمون إلى فريق خلاق فى العالم الحديث ، مع الاحتفاظ بشخصيتهم وهويتهم؟ . . هكذا وجد الإسلام نفسه فى مواجهة حضارة ليست مادية بحتة فقط . وفى إطار هذه المواجهة يمكن فهم جانب من أسباب الظاهرة . . هذا بالإضافة إلى البطالة والفساد ، والصراع العربى الإسرائيلى ، وأزمة الأيديولوجيات الأوربية ، القومية والاشتراكية وبخاصة الماركسية . .» .

فهى مواجهة بين خيار حضارى إيمانى ، وآخر مادى ، تراجعت

أيديولوجـيـاته ، بعـد أن صنعت للعـرب والمسلمين الكثـيـر من الأزمات ، فوجد الإسلام والمسلمون الطريق مفتوحا ليتحمل الإسلام ، كدين وحضارة ، مسئولياته النهضوية ، التى تجعل من العرب والمسلمين فريقا خلاقا فى العالم الحديث! . .

أما المستشرق الإنجليزى «هومى بابا» ، فيرى الظاهرة الإسلامية جزءا من ظاهرة عالمية ، ترفض العلمانية والمادية والتحديث الأوربى - بشقيه الليبرالى والشيوعى - الذى حرم شعوب العالم الثالث من تاريخها وثقافتها . . «فالقضية الأساسية هى التحول الذى تشهده دول وثقافات عدة عن الأيديولوجيات العلمانية إلى نماذج ومثل أصولية دينية . . فالحركات الأصولية تتفق فى خيبة الأمل من السياسة الاجتماعية والثقافية الليبرالية الديمقراطية ومن العقلانية الاجتماعية التى نهضت عليها هذه السياسة . . ومن التحديث الذى يمثل حركة معاكسة للأصولية . . إن وعد التحديثية ، سواء أتى من صندوق النقد الدولى أو البنك الدولى ، كان وسيلة لحرمان شعوب العالم الثالث من تاريخها المستقل . وفى هذا السياق تظهر حركات معارضة لأفكار وقيم علمانية تحديثية أوربية التمركز ، وهذه المعارضة أصولية دينية لا تقوم على تصورات مادية أو مستوحاة من الشيوعية التى تواطأت مع المشروع التحديثى إلى درجة ما . .» .

وعند المستشرق الإنجليزى «فيردها ليداى» ، نجد المد الإسلامى : الرد السياسى الاجتماعى على المشكلات التى صنعها التحديث الغربى ، الذى فقد مصداقيته . . والبديل للنظم «اليمينية واليسارية» سيئة السمعة . . «فهذه الحركات ذات رد سياسى اجتماعى على مشاكل حقيقية تعيشها مجتمعاتها : ظروف ازدحام

مدينى ، ودول فاسدة ، وتأثير وإهانة خارجيان ، وتغير ثقافى . فى الماضى كانت الحركات اليسارية ، أو تلك العلمانية الشعبية ، مصدر الرد على هذه المشاكل ، إلا أن سمعة اليسار لا تقل سوءا عن سمعة بعض الأنظمة اليمينية . . وهى قد اشتركت كلها فى مشروع علمانى تحديثى فقد صدقيته حاليا . .» .

ويفصل المستشرق الإنجليزى «روبن أوستل» ، أسباب هذه الظاهرة الإسلامية فى نقاط موجزة ، فيراها ثمرة لغيبة العدالة الاجتماعية . . وأزمة الهوية . . وحدة تأثير الأزمة على الشباب . . وسقوط الحلول ذات النماذج الغربية . . والثقة فى الحل الإسلامى لهذه الأزمات . . وعنده أنه «يمكن تلخيص أسباب بروز هذه الظاهرة بما يأتى :

(ا) الرغبة فى وضع معيار للعدالة الاجتماعية ، إذ هناك فجوات آخذة بالاتساع بين الغنى والفقير .

(ب) أزمة الهوية : فلقد تمخضت المرحلة الكولونيالية وماتلاها عن أزمة هوية فى معظم أجزاء العالم العربى ، بعد ما صيغت هيكلية القوانين والأنظمة وفق نماذج غربية .

(جـ) حدة تأثير الشرور الاجتماعية الناجمة عن الفقر ، وضعف الأمل بالعثور على عمل بالنسبة للشباب .

وفى ظل الغياب الواضح لأى حل آخر يشعر كثير من الشباب بأن الإسلام قد يكون وسيلة التحديث والحفاظ على الهوية وتحقيق مستويات أعلى من العدالة الاقتصادية والاجتماعية . .» .

وعند المستشرق الإنجليزى «ديريك هوبوود» ، نجد هذه الظاهرة الإسلامية : البديل الإسلامى المرشح لبناء حياة ومجتمع جديدين ، ولحل مشكلات التنمية الاقتصادية ، ولتأكيد الشخصية

والهوية التى تتعرض «للأمركة» الطاغية . . والقادر على إقامة دولة إسلامية مستقلة عن تدخل الأجانب وتأثيرهم ، وذلك بعد أن فشلت الأيديولوجيات الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية فى حل أزمات العالم الإسلامى . . فهى السبيل إلى «إعادة تأكيد القيم الإسلامية فى العالم العربى . هى رد فعل على فشل الأيديولوجيات الأخرى فى حل المشاكل الحاضرة . والاعتقاد بأن الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية قد أخفقت يؤدى إلى طرح الإسلام بديلا يقدم الحلول المرجوة . وهو أيضا وسيلة لإعادة تأكيد الشخصية والهوية الأساسية وحمايتها من «الأمركة» الطاغية التى يتعرض لها نمط الحياة . والإسلام ، أيضا ، قاعدة بناء مجتمع وحياة جديدين توفران حلولا لمشاكل التنمية الاقتصادية كلها ، وهذا يفضى إلى الإيمان بأن إقامة المجتمع الإسلامى المثالى ستتيح معالجة كل شىء . .» .

ولا يختلف الأمر ، فى تشخيص أسباب المد الإسلامى ، عند المستشرق الروسى «آرتور سعادييف» . . فهو يرى هذه الظاهرة : رد الفعل الإسلامى ، الذى يقدم الشريعة بديلا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وحقوقيا وأخلاقيا لبناء الأمل الذى خاب فى التحديث الغربى - الليبرالى والقومى والاشتراكى - ذلك الذى قاد إلى أزمات فى الاقتصاد والهوية . . «فالحركات الأصولية هى حركات احتجاج نتجت من خيبة الأمل من نتائج التحديث التى حققتها بعض الأنظمة العربية . ففى المجال الاقتصادى ، قاد هذا التحديث إلى نمو التضخم والبطالة وأزمة السكن . وفى المجال الروحى ، إلى أزمة الهوية . وبما أن التحديث جرى تحت شعارات الليبرالية والقومية والاشتراكية - وهى شعارات اعتبرت «مستوردة» من

الغرب - فالتحديث أيضا كان يعنى التطبع بطابع الغرب . ولهذا أصبحت الصفة الجامعة للحركات الأصولية : العداوة لما هو غربى ، واتخذت شكل الدعوة إلى إقامة أنظمة اجتماعية وسياسية واقتصادية وحقوقية وأخلاقية أساسها الشريعة الإسلامية» .

ومثل ذلك نجده عند المستشرق الأمريكى «جون فول» . . فهذه الحركات «هى أسلوب للرد على فشل برامج سياسية حديثة ، وعلى أساليب حياة وقناعات تندرج فى هذا السياق» .

وهى عند المستشرق الإيطالى «سلفاتورى بونو» : ثمرة «خيبة الأمل ، بسبب عدم انطلاق التطور الاقتصادى والاجتماعى ، بعد انتهاء المرحلة الاستعمارية ، لذا اعتبرت العودة إلى تطبيق المبادئ الإسلامية وسيلة للانعتاق الاقتصادى والاجتماعى . وأحدث هذا التفسير الجديد تغييرا فى الحركات الدينية ، محولا إياها إلى تنظيمات ذات برنامج سياسى» .

أما المستشرق الروسى «فيتالى ناوومكين» فيرى هذه الظاهرة الإسلامية : الطريق الإسلامى للأصالة القومية ، ولحماية المصالح الوطنية ، بعد فشل التحديث فى حل المشكلات الاجتماعية ، وتزايد حدة الفوارق الاجتماعية ، والتبعية الاقتصادية للغرب . . إنها «تعود ، قبل كل شىء ، إلى أسباب اجتماعية ، وفى درجة أقل إلى أسباب سياسية . . إنها تنشط أكثر ما تنشط حيث تجرى محاولات لتحديث أعمق ، لم يسفر عن نتائج . . فيتسلح النشطون الإسلاميون بأفكار الأصالة القومية ، وحماية المصالح الوطنية . . ومادامت هناك هوة كبيرة بين الأغنياء والفقراء فى إطار البلد الواحد ، وفى مستويات التطور بين مختلف البلدان . . وما دامت الرساميل العربية تجلب الازدهار للغرب ، وتلعب دورا فى تطوره من

دون اهتمام بتنمية مجتمعاتها ، فستبقى الأسباب المولدة للتطرف الذى يجد فى شعارات الإسلام السياسى ملجأ له . .» .

وعند المستشرق الإسبانى «بيدرو مارتينيث مونتانيث» : هى «نتيجة حتمية لأخطاء كثيرة تتراكم منذ عقود . وهى الخيار الطبيعى أمام الإحباطات والإخفاقات السابقة . فالإسلام هو المسوغ الهيكلى والجوهرى لجميع الشعوب والدول والمجتمعات العربية . .» .

وفى رأى المستشرق الهولندى «رودولف بيترز» ، فإن هذه الحركات الإسلامية تمثل الرفض الجماهيرى لخيار المؤسسة الاستعمارية الغربية - فى الديمقراطية والليبرالية والاشتراكية - الذى طرحته على يد أقليات منتقاة - وهو خيار مقطوع الصلة بجذور المجتمع وأصوله العربية والإسلامية . . «فجذور المشكلة تمتد إلى الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن ، عندما طرحت المؤسسة الاستعماوية الغربية خيارها الخاص فى العالم العربى على يد أقليات منتقاة ، وليس عبر الغالبية الواسعة من السكان ، متبنية أهدافا مثل الديمقراطية والليبرالية والاشتراكية ، وهى قوالب لم تكن لها جذور أو أصول فى المجتمع الإسلامى والعربى» .

ولا يختلف الأمر عند المستشرق الروسى «الكسندر سميرنوف» ، الذى يراها : الرد على التشويه الغربى العنيف للأصول الروحية والثقافية الإسلامية ، والمواجهة للإذلال القومى والتشويه الاقتصادى الذى مارسه الاستعمار الغربى فى العالم الإسلامى . . «فالعنف والإرهاب يقويان فى البلدان التى استعمرها الغرب بالقوة ، أو جعلت ذات طابع غربى بالقوة ، فتشوهت أصولها الروحية وثقافتها ، وفى كثير من النواحى اقتصادها أيضا . . فكان نمو التطرف الإسلامى كرد فعل حتمى على الإذلال القومى . .» .

وحتى ظاهرة العنف فى الحالة الإسلامية ، تراها المستشرقة الإيطالية «إيزابيلا كاميرا دافليتّو» ناشئة عن : السياسة الاستعمارية الغربية . . والامبرالية الثقافية . . والاستعمار الجديد . . وغياب الديمقراطية والحرية . . وأخطاء الزعامات العربية . . «فالظاهرة الأصولية العنيفة ، هى وليدة للمصاعب التى تجتازها بعض البلاد العربية ، وبالذات على الصعيد الاقتصادى لكن حتى هذه المصاعب الاقتصادية ليست وليدة اليوم ، وإن كان للزعامات الحالية دور فى تعميقها ، فهى وليدة السياسة الاستعمارية والامبريالية الثقافية ، والاستعمار الجديد . لذا ، ففى اعتقادى أن مسئولية الغرب فى هذا الإطار كبيرة وثقيلة . . فأخطاء الزعامات العربية ، وغياب الديمقراطية والحرية فى العديد من البلدان العربية ، من العوامل التى تساهم فى شق الطريق أمام صعود تيارات عنيفة تستفيد من غضب الناس» .

ودون خروج عن جوهر الموقف الاستشراقى - الذى عكسه «ملف» (الوسط) - فى تحديد أسباب بروز الحركات الإسلامية . . يرى المستشرق الألمانى «أودوشتا ينباخ» أنها ثمرة لتراجع شرعية النظم الحاكمة بسبب الأزمة العميقة فى ميادين الثقافة والاجتماع والاقتصاد . . وأخلاقيات الغرب المزدوجة فى التعامل مع القضايا الإسلامية ، التى أدت إلى هزيمة قيمه ، وهزيمة المثقفين الباحثين عن حلول للأزمة مؤسسة على هذه القيم الغربية . . هذه الأسباب قد أكسبت الحركات الإسلامية شرعية نسبية ، عندما وعدت الناس بحلول تخرجهم من أزمتهم العميقة . . إنها «الأزمة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية العميقة التى يتخبط فيها العالم العربى . . أعطت شرعية نسبية للحركات الإسلامية ، التى قدمت

وعودا بحلول للمشاكل المطروحة . . ويتحمل الغرب عامة ، وأوربا على وجه التحديد ، جزءا من المسئولية . فالغرب مطالب بإظهار مصداقيته أكثر من أى وقت مضى ، وهو مطالب أيضا بتجنب الأخلاقية المزدوجة إن استمرار الحرب فى البوسنة مثلا ، يعطى الفرصة للمتطرفين الإسلاميين كى يعمقوا الهوة بين شعوبهم وقيم الغرب ، ويهزموا المثقفين الساعين إلى إيجاد حلول واقعية وعقلانية للأزمات الراهنة» .

ويرى المستشرق الإسبانى «فرناندودى أغريدا» ، أن الظاهرة الإسلامية هى الرد على الأزمة الاقتصادية والسياسية . . وتدخلات القوى الكبرى فى شئون العالم العربى . . وانقطاع الحوار الثقافى بين الشرق والغرب «إنها تعود إلى أسباب عدة ، أهمها الأزمة العامة التى يعيشها العالم العربى والإسلامى ، وتكاد تشمل كل المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وهى تعتبر أيضا ردا على تدخلات بعض الدول الكبرى . . وانقطاع الحوار الثقافى بين الشرق والغرب . .» .

وتذكر المستشرقة الألمانية «أردموتة هيللر» ، من أسباب بروز المد الإسلامى : أزمة الثقة بين المحكومين والحكام . . وتعميق الجراح القديمة بين الشرق والغرب . . وذلك بسبب : عجز نظم مابعد الاستقلال عن تحقيق الآمال . . وتحول الحركات التى قامت لتحرير الوطن إلى أجهزة قمع للحريات ونهب للثروات . . والهزائم المتتالية فى الصراع العربى . . الإسرائيلى . . «فالاستقلال لم يحقق الآمال المنشودة . وفى أغلب البلدان العربية ، تحولت الأحزاب والحركات التى قادت النضال التحررى إلى أجهزة للقمع والإرهاب والرقابة . بالإضافة إلى هذا وقع نهب شبه منظم من قبل الطبقات الحاكمة ،

والفئات الاجتماعية الموالية لها ، لخيرات البلاد ، مما عطل حركة النمو الاقتصادى ، وأهدر الطاقات ، وتسبب فى أزمات خطيرة . . والهزائم المتتالية التى منيت بها الجيوش العربية فى الصراع العربى الإسرائيلى ، فتحت أبواب اليأس على مصراعيها ، وعمقت الجراح القديمة بين الشرق والغرب ، وخلقت حالة من انعدام الثقة بين المحكومين والحكام . . وأعتقد أن ظاهرة الأصولية ، هى نتيجة طبيعية لهذا الوضع المتأزم الذى يعيشه العالم العربى منذ ما يزيد على العشرين عاما» .

وعلى هذا الدرب ، الذى اجتمع فيه المستشرقون وأجمعوا على أن بروز هذه الظاهرة الإسلامية إنما هو نتيجة طبيعية لأزمة حضارية وثقافية واقتصادية واجتماعية زلزلت هوية العرب والمسلمين ، وشارك فى صنعها الغرب واستعماره ، واستغلاله وايديولوجياته ، مع النظم التى حكمت العرب فى حقبة مابعد الاستقلال ، والأقلية المثقفة التى تولت التبشير بأيديولوجيات غربية مرفوضة من الجمهور . . على هذا الدرب سار المستشرق الهولندى «بان بروخمان» عندما رأى فى الظاهرة الأصولية : «محاولة الإصلاح الثالثة ، بعد فشل المحاولة القومية ، والمسار الاشتراكى . .» . . والمستشرق الأمريكى «روجر أوين» ، الذى أرجعها إلى «خيبة الأمل من جراء فشل حكومات مابعد الاستقلال فى خلق نظام سياسى واجتماعى - اقتصادى عادل وغنى وسليم» . . والمستشرقة الإسبانية «مرثيدس ديل آمو» ، التى أرجعتها إلى «الفقر والجهل . . والافتقار إلى علاقات دولية عادلة . . وإغلاق طريق الحصول على التعليم والصحة أمام العالم الثالث . . والاعتقاد بامتلاك الحقيقة دون الآخرين» . .

وبمناسبة «الاعتقاد بامتلاك الحقيقة دون الآخرين» - كسبب من أسباب هذه الظاهرة - .. هل للمرء أن يسأل أساتذة الاستشراق، الذين نسبوا إلى «الآخرين» كل هذا الفشل .. والمسئولية عن الأزمات التى زلزلت هوية الأمة، وشوهت تاريخها، وأذلت كبرياءها القومى، وحرمتها من مقومات الحياة .. هل يعتقدون أن لدى هؤلاء «الآخرين» «حقيقة» يدعون إلى الاعتراف بها، وإلى احترامها؟! أم أن هؤلاء الآخرين هم أيضا المسئولون عن «اعتقاد الأصوليين بامتلاك الحقيقة دون الآخرين»؟! ..

على هذا النحو كان حديث المستشرقين عن أسباب بروز الظاهرة الإسلامية .. مع إضافة المستشرق الفرنسى «بيار تييه» : «انتصار الثورة الإسلامية فى إيران» إلى هذه الأسباب .. وإضافة المستشرق الهولندى «يوهان يانسن» : «الخوف من التطور التكنولوجى الزاحف الذى يحكم سيطرته على كل مرافق الحياة فى المجتمع المعاصر» .. وإن كان المدقق لحال العالم العربى والإسلامى يلاحظ أنه وإن خاف من الإغراق الثقافى الغربى، فإنه فقير ومشوق إلى «التطور التكنولوجى الغربى»، ولا يخاف منه زحفا ؟! ..

* * *

لقد تفاوتت مواقف المستشرقين فى الإيجاز والتفصيل لأسباب بروز الظاهرة الإسلامية .. وكذلك فى التركيز على بعض جوانب وعوامل بروز هذه الظاهرة، تبعا لتنوع مناهج ومذاهب وتخصصات كل منهم .. لكنهم جميعا اتفقوا على أن هذه الظاهرة هى ثمرة طبيعية تماما لأزمة حضارية صنعها الغرب والنظم التى حكمت بأيديولوجياته فى مختلف ميادين حياة وفكر وثقافة العرب والمسلمين ..

لقد أدان هؤلاء المستشرقون الغربيون ما صنعه الغرب بالعرب والمسلمين ، على النحو والمستوى الذى لا يفعله كثير من «المتغربين» العرب والمسلمين . . وهذا هو الفارق بين «العلماء الأئمة» وبين «التلاميذ المقلدين» . . لقد اجتمعت كلمة هؤلاء المستشرقين على أن الأصولية الإسلامية هى التعبير عن البديل الرافض للنموذج الغربى العلمانى ، الذى فشل فى إنهاض العرب والمسلمين . . والرافض للإذلال الاستعمارى للقوميات الإسلامية . . والرافض للتغريب الذى هدد هوية الأمة وثقافتها وتاريخها . . وبغير هذا «الملف» الذى قدمته (الوسط) ما كان لنا أن نرى هذه الموضوعية التى تستحق كل الاحترام .

٣

هل الصحوة الإسلامية خطر على الغرب؟؟

كانت القضية الثالثة ، التى عرض لها المستشرقون الثلاثون - الذين استطلعت (الوسط) آراءهم فى الأصولية الإسلامية - هى قضية العلاقة بين هذه الظاهرة وبين الغرب ، وتأثيرها على وضع الجاليات العربية والمسلمة فى المهاجر الغربية؟؟ . .

ولقد تنوعت وتعددت زوايا التركيز والاهتمام فى إجابات المستشرقين على سؤال (الوسط) : «ماهو ، فى رأيك ، انعكاس هذه الظاهرة على العلاقة بالغرب ، وعلى المهاجرين العرب والمسلمين»؟

لكن الجميع تقريبا تكاملت إجاباتهم لترسم معالم الإجابة المتكاملة التى تؤكد على أن القول بتهديد إسلامى للغرب هو «خرافة» . . ومشكلة مفتعلة . . و «صورة» صنعها الغرب ضمن سعيه لصنع عدو بديل لإمبراطورية الشر الشيوعية التى سقطت . . وللإعلام الغربى والصهيونية العالمية دور بارز فى «صناعة» هذه «الصورة» ، والترويج لهذه الخرافة . . كما أن للأحزاب العنصرية الغربية - وهى أصولية غربية - دورا بارزا فى ذلك الحديث عن تهديد الجاليات الإسلامية فى الغرب للخصوصيات الحضارية للمجتمعات الغربية التى يعيشون فيها . . وهناك ، أيضا سوء فهم الغرب لحركات الإحياء والتجديد والنهوض ذات المرجعيات

الدينية ، مصدره النظرة الأحادية ، والقياس على تجربته التاريخية مع الكنيسة ، والجهل بتميز النموذج الإسلامى فى علاقة الدين بالسياسة . . ودور المدرسة الاستشراقية الاستعمارية القديمة فى «صناعة صورة» هذا الخطر الموهوم . .

قال المستشرقون ذلك كله ، وهم يفندون خرافة الخطر الإسلامى على الغرب . . ووضع كثير منهم النقاط فوق حروفها . . فأشاروا إلى أن الحقيقة إنما تكمن فى عداء الغرب للبديل الإسلامى الذى يهدد استغلاله الاستعمارى ، وإذلاله لقوميات العرب والمسلمين . . بل إن منهم من تحدث عن الأرض المشتركة بين الصحوة الإسلامية وبين صحوة دينية فى الغرب . . ففى الغرب - كما فى الشرق - مؤمنون ، تؤرقهم المادية والعلمانية والنزعة الاستهلاكية ، ويتطلعون - مع المسلمين - للإحياء الدينى؟! . .

فالمستشرق الإنجليزى «فرد هاليداى» ، يقول : «يتكلم الناس فى الغرب عن «تهديد إسلامى» . وهذا فى غالبه هزر فارغ . فالحركة الإسلامية ليست معنية أساسا بالغرب على الإطلاق ، بل بمجتمعات إسلامية» . .

وعميد الاستشراق الفرنسى «جاك بيرك» يرى أن قلق الغرب من الإسلام ليس نابعا من تهديد حقيقى يتعرض له الغرب . . وإنما هو نابع من قلقه على هيمنته الغربية التى يتحداها الإسلام . . فيقول : «الغرب ، ويالـلأسف ، يعتبر الإسلام عموما ، والإسلام العربى خصوصا ، مصدر تهديد مباشر موجه ضده . ويوجه

احتياطه الاستراتيجي نحو الجنوب، بعدما كان موجها لوقت طويل نحو الشرق. وهنا أقول: إن القوة الوحيدة التى يبدو أنها تقاوم الهيمنة الجديدة ذات القطب الواحد، أى الولايات المتحدة الأمريكية، هى الإسلام وبعض الدول العربية، ولهذا يعتبر بعضهم أن العرب والإسلام هم العدو الواجب قهره»!..

أما المستشرقة الإيطالية «إيزابيلا كاميرا دافليتّو» فترى أننا أمام مؤامرة غربية هدفها «اختراع» عدو.. وأن المدرسة الاستشراقية الاستعمارية والإعلام الغربى ضالعان فى خلق «بعبع» إسلامى، وذلك لخلق خط دفاعى ضد هجوم وهمى، ليظل الغرب مترفعا ومتعاليا على ما سواه من العالم.. وفى سبيل ذلك يتم تزييف الصورة الإسلامية، وتبعث الضغائن القديمة، وتخلط الشعائر الدينية الإسلامية بالعنف الأصولى!.. ترى المستشرقة الإيطالية ذلك، فتقول: «قضية الأصولية الإسلامية واجهت تضخيما مبالغا فيه من قبل أجهزة الإعلام الغربى.. فالغرب كان وما يزال بحاجة إلى «اختراع» عدو حتى يضمن لنفسه خطا دفاعيا، ويظل مترفعا ومتعاليا على ما تبقى من العالم.. وعندما انهارت الشيوعية، برز لدى الغرب التساؤل التالى: من سيكون عدونا المقبل؟ وإذا به يسحب من خزانة تراكم عليها غبار الزمن صورة العدو التاريخى القديم المتمثل بالعالم الإسلامى. لكن الغرب كان أيضا بحاجة إلى وسيلة لإقناع مواطنيه بمصداقية هذا الاكتشاف «الجديد - القديم»، لذا كان طبيعيا أن يحاول ترسيخ ملامح

«البعبع» من خلال تقديم الأصولية الإسلامية فى صورة العدو العنيف . واستغل لتقديم هذه الصورة كل ما يمكن أن يمت إلى العالم الإسلامى بصلة . فنحن ، وعلى الرغم من وجود مظاهر أصولية كثيرة فى الديانة المسيحية أو الديانات الأخرى فى الغرب ، لا نسمع حديثا عن «عنف هذه المظاهر الأصولية» ، فى حين نرى هذا المنطق يطبق على العالم العربى .

اطلعت أخيرا على الترجمة الإيطالية لأحد كتب المستشرق الإنكليزى العجوز بيرنارد لويس ، وهو ينتمى إلى المدرسة القديمة الغربية من المنطق الاستعمارى . نشر الكتاب فى طبعة إيطالية ، تحت عنوان (القتلة الإرهابيون الأوائل فى التاريخ) ! وعندما تنشر دار نشر مشهورة وكبيرة فى إيطاليا كتابا بهذا العنوان ، فمن الواضح أن لديها هدفا فى تزييف الحقائق . وليس هذا إلا مثالا مصغرا عما يكمن فى الغرب من استعداد لرؤية الجانب السلبى فقط من العالم العربى . .

يكفى أن ترى نشرات الأخبار ، فهى عندما تتحدث عن ظاهرة الأصولية ومظاهرها العنيفة ، تذهب لتصور الناس وهم يؤدون شعائر دينية أو يصلون فى المساجد ، ثم تربط بين هذه الصورة والحديث عن «العنف الإسلامى» ! . ترى لماذا لم تفكر محطات التلفزيون فى الحديث عن الظاهرة الأصولية فى الديانات الأخرى - وهى موجودة بالفعل - من خلال الربط بينها وبين مشهد آلاف المؤمنين الذين يؤمون ساحة القديس بطرس فى الفاتيكان كل يوم أحد

للاستماع إلى قداس الأحد الذى يحييه البابا يوحنا بولس الثانى؟ . . أو أولئك الذين يقفون أمام حائط المبكى فى القدس؟ . ثم ، من أجاز لهؤلاء الصحفيين أن يطلقوا على بشر عاديين يؤدون شعائرهم الدينية صفة «الأصولية»؟ .

كل ذلك يدفعنا إلى اكتشاف درجة الزيف فى الصحافة والإعلام الغربيين ، ومدى استعداد البعض إلى استخدام ضغائن دفينة تجاه العالم العربى والإسلامى . أعتقد أن ما يحدث فى الغرب إزاء هذه الظاهرة ، عبارة عن «خط دفاعى» ضد «هجوم» مفترض وموهوم . وتظهر النتائج بوضوح على المهاجرين العرب والمسلمين بشكل عام ، فغالبيتهم تعيش فى ظروف قاسية ، وفى حالات العزلة الاجتماعية . كما يعانى أبناء المهاجرين من مصاعب عديدة سواء فى الدراسة أو ممارسة شعائرهم الدينية ، ففى مدينة كبيرة مثل روما ، لا وجود لمسجد ، والمسجد الذى أنشئ لم يفتتح بشكل كامل حتى الآن» ؟! . .

وينفى المستشرق الفرنسى «مكسيم رودنسون» ، وجود خطر إسلامى على الغرب ، ويقول : «ربما وجب اجتماع شروط من الصعب جمعها لكى يصبح فى الإمكان الحديث عن خطر أصولى على الغرب» .

وكذلك يرى المستشرق الإيطالى الشهير «فرانشسكو غابرييلى» ، أن لا منطق لقلق غربى من ظاهرة الأصولية الإسلامية «فالغرب يشعر بالقلق إزاء ما تنطوى عليه تلك الظواهر من عنف . وهذا

القلق يدفع بالكثيرين إلى التساؤل : إذا لم يكن لدى الإسلام رغبة فى «فتوحات» جديدة كما حدث فى القرون الوسطى؟ . وهو قلق لا يمتلك طبعا أى أساس منطقى على الإطلاق» .

أما المستشرق الأمريكى «جون إيسبوسيتو» ، فيرى فى الحديث عن خطر إسلامى على الغرب وهما لا أساس له ، فهناك أرض مشتركة بين جماهير عريضة من المؤمنين - فى الشرق والغرب - مسلمين ومسيحيين ويهود - يشتركون فى القلق من النزعات المادية الاستهلاكية ومن العلمانية . . فالمقاصد المشتركة ، لا المتناقضة ، يمكن أن تجمع بين الغرب والإسلام . . «هناك فى المجتمعات الإسلامية والغربية ، أعداد كبيرة من المؤمنين (مسلمين ومسيحيين ويهود) يشتركون فى نفس القلق من تمادى العلمنة والمادية الاستهلاكية . لذا ، فبمجرد أن نقوم بالتمييز بين الإسلام والتطرف ، ونتنبه إلى ما يفرق المتطرفين القائلين باستخدام العنف عن الحركات الإسلامية الحديثة ، فإن حجج الذين يعتقدون أن الإسلام يشكل تهديدا سكانيا وحضاريا للغرب ستسقط كلها بلمح البصر» .

ويفند عدد من المستشرقين مزاعم تهديد المهاجرين المسلمين فى الغرب خصوصيات المجتمعات الغربية الحضارية . فيقول المستشرق الهولندى «يان بروخمان» : «إن اتهام المهاجرين العرب والمسلمين بالتطرف مجرد كلام فارغ ودعايات وحملات منظمة تشنها فئات ذات أهداف سياسية معروفة» .

ويدعو «جاك بيرك» الأقليات المسلمة فى الغرب إلى التكيف مع الأكثرية ، دون التخلى عن إسلامها ، إذ «عندما يكون طرف ما أقلية عليه أن يتكيف مع الأكثرية . . أن يدفع ثمن القبول فى المجتمع . . فعلى الأقليات المسلمة أن تتكيف مع المجتمعات الغربية دون التخلى عن الدين» . .

وهذا «التكيف» الذى يدعو إليه «جاك بيرك» ، يتحدث المستشرق الفرنسى «دومينيك شوفالييه» عن أنه متحقق بالفعل . . «إن المواطنين المسلمين ، بمن فيهم الأصوليون ، قبلوا الاندماج فى إطار القوانين الفرنسية . . ووجود المسلمين لايشكل خطرا ، بل مصدر غنى للمجتمع الفرنسى . . وإذا كان هناك بعض التطرف فى الفئات المهمشة ، فسببه البطالة واليأس الكبير ، وأعتقد بأن هذا اليأس هو الذى يجب حله . .» .

أما المستشرق الفرنسى «بيارتييه» ، فينفى وجود خطر من الأقليات الإسلامية فى الغرب ، إذ «يمكن للأصوليين أن يمارسوا ديانتهم فى فرنسا ، لكنهم ليسوا قادرين على تحويل دينهم إلى فعل سياسى . لذلك لا يشكلون خطرا على فرنسا . . والحديث عن هذا الخطر يصدر عن أحزاب متطرفة فى فرنسا ، ويطرحه بعض الوزراء بطريقة ديبلوماسية . . والإسلام ليس مناقضا للعلمانية . . والأديان يمكن أن تتعايش . . والعلمانية هى فعل التعايش بين الأديان . .» .

وعندما يتحدث «بيارتييه» عن الأصولية الدوغماتية ، التى تدير ظهرها للغرب ، نجده يتحدث عن خلاف الرؤية الإسلامية ، التى

ترى فى الوحى والغيب والإيمان «حقائق» ، مع الوضعية الغربية التى تضع «الحقائق» بعيدا عن منطقة «الإيمان» الذى تراه لا يرقى إلى مرتبة «الحقيقة» . . فيقول : «ولعل أخطر ما فى الحركة الأصولية هو دوغماتيتها ، وهى دوغماتية غير مبررة . لماذا؟ لأنها لا تقوم على التمييز بين حقيقة الإيمان والحقيقة العلمية الثقافية . ففى رأيى أن هناك حقيقة تنتمى إلى مجال المعرفة ، وحقيقة تنتمى إلى مجال الاعتقاد ، ولا يمكن الخلط بين الاثنين . إن الأصولية ترفض مبدأ الحقيقتين ، ولذا تدير ظهرها للغرب» . .

لكن . . هل تضيق صدور ليبرالية وديمقراطية الغرب - التى وسعت التيارات الفكرية والفلسفية المتناقضة - بالرؤية الإسلامية التى تقول بالحقيقة الواحدة؟ . . فلا يكون هناك داع ولا مبرر لأن يدير بعض المهاجرين المسلمين إلى الغرب ظهورهم لمجتمعاته؟! . .

ويلفت «جاك بيرك» النظر إلى «السياسة الغربية» التى تستفز مشاعر المسلمين بتصرفات «حمقاء» ، من مثل الاحتفاء بـ «سلمان رشدى» : «إنه لفعل أحمق أن يدعو وزير فرنسى سلمان رشدى ، الذى شتم نبى الإسلام . . إن الذين دعوا رشدى كانوا يودون تسجيل موقف . هذه مبادرة حمقاء من وجهة نظر سياسية ، وتنم عن موقف غير مسئول» .

أما المستشرق الإنجليزى «ديريك هو بوود» ، فيرى أن مخاوف الغرب من الإسلام راجعة إلى عدم تقديره رغبة المسلمين العميقة فى تحديد هويتهم والحفاظ عليها . . وإلى رد الفعل الإسلامى المتمثل

فى اللغة العدائية لموقف الغرب هذا . . والحل عنده هو فى قبول الغرب بحق المسلمين فى اختيار الهوية والقيم المتميزة . . «إن هناك قليلا من التقدير فى الغرب لرغبة المسلمين العميقة فى إعادة تحديد هويتهم والحفاظ عليها فى وجه هيمنة خارجية . ولكن لسوء الحظ أيضا ، يعبر الإسلاميون غالبا عن ذلك بلغة العداء الحاد للغرب ، فيعززون العداء وعدم الفهم المتبادلين . . إن الالتزام العميق للقيم الإسلامية راسخ لايمكن استئصاله من العالم العربى ، وعلى الحكومات المحلية وبقية العالم القبول بهذه الحقيقة والعيش معها . .» .

ويرجع المستشرق الإسبانى «بيدرو مارتينيث مونتابيث» المشكلة إلى تناقض «التعصب والتزمت» الأصولى مع «الفوضى الغربية فى العقائد والأخلاق والملذات والنزوات الاستهلاكية» . . وإلى عدم تقدير الغرب للمهاجرين المسلمين الذين يبنون فى مجتمعاته . . «إن انعكاس هذه الظاهرة على العلاقة بالغرب سلبى فى الغالب . لكن المسئولية تقع أيضا على الغرب ، فالمجتمعات الغربية تتخبط منذ زمن فى أجواء من الفوضى العقائدية التى يضاف إليها تداعى البنيان الأخلاقى والجنوح إلى الملذات والاستسلام للنزوات الاستهلاكية . . إن المهاجر ، بالنسبة إلى السواد الأعظم من الغربيين ، مجرد بديل عمالى أقل شأنا وخبرة ، وغير جدير بالقدر نفسه من الاهتمام وهو مرفوض ومحارب ومطارد . ويصعب على الغربى أن يقر بالخدمة التى يقدمها إليه المهاجر . . والصورة المضخمة التى تروج عن عدو خارجى خطير هو «الأصولى» ، تحدث ردة فعل لدى المواطن الغربى تزداد عنفا . .» .

ويتوجه المستشرق الروسى «فيتالى ناوومكين» بمطالبه إلى الغرب ، فالمسئولية مسئوليته . . وحل «المشكلة» بين الغرب والإسلام كامن فى : اعتراف الغرب بحق الحركات الإسلامية فى الوجود والعمل . . والاعتراف بحق الشرق فى اختيار طريق التطور وفق قوانينه وسننه . . وفى تخليه - الغرب - عن سياسة فرض المقاييس الغربية على الشرق . . «فالديمقراطية الحق تحتم الاعتراف بالقوى السياسية ذات التوجه الأصولى ، كجزء من المشهد السياسى العام . وإن لكل مجتمع الحق فى أن يعيش حسب قوانينه وسننه . ولهذا يجب أن تتحكم فى موقف الحضارة الغربية من الحضارة الإسلامية قوانين التعايش ، وليس توحيد المقاييس ، وتطبيق المقياس الغربى الواحد على الشرق ، فإذا لم يتفق التحديث مع التقليدية ، استحال الخلاص من الأشكال الدينية المتطرفة . .» .

وترجع المستشرقة الإسبانية «كارمن رويث» المشكلة إلى جهل الجمهور الغربى بحقيقة ما يجرى فى العالم الإسلامى «فالعلاقة مع الغرب ستبقى قائمة ، وستسير فى اتجاهات شتى ، لأن فى الغرب أيضا أصوليات تعيش بجانب تيارات فكرية منفتحة على الحوار . لكن السواد الأعظم من سكان الغرب ضئيل المعرفة بالعالم الإسلامى عموما والعالم العربى خصوصا . .» .

أما المستشرق الهولندى «رودولف بيترز» فيرى فى الصهيونية ، واللغة الإعلامية الغربية مصادر الترويج لدعوى الخطر الإسلامى

على الغرب . . وهى مصادر تهدم ما تبنيه المؤسسات الأكاديمة المهتمة بالإسلام وعالمه . . «فعلى الرغم من أننا فى المؤسسات الأكاديمية نحاول التأكيد على أن الأصولية بعد من أبعاد عدة للإسلام ، وأن الغالبية العظمى من المسلمين تختلف مع الأصولية ، إلا أننا نواجه صعوبة شديدة ، لأن اللغة الإعلامية اليومية تكرس الصورة المشوهة . . فتصور الإسلام هو الأصولية والأصولية هى الإسلام ، وأنهما الخطر الأول على الغرب والعالم الحر . وإذا أضفنا ما يقوم به الإسرائيليون من تضخيم للخطر الأصولى ، على أساس أنه البديل من الخطر السوفياتى ، كانت النتيجة واضحة»! .

وترجع المستشرقة الإيطالية «آداليندا غاسبا رينى» ، مخاوف الغرب من الإسلام ، إلى خلطه بين تجربته الحضارية والتاريخية ، فى علاقة الدين بالسياسة والدولة - وهى التجربة التى خلص منها باختيار العلمانية - وبين واقع هذه العلاقة فى العالم العربى والإسلامى ، الذى لا تناقض فيه - فكرا وتاريخا - بين الدين والسياسة ، ومن ثم فإن الغرب يرى الظاهرة الدينية فى العالم العربى على النحو السلبى الذى عرفه فى عصوره الوسطى والمظلمة . . إن «ما حدث فى الغرب هو أننا خلطنا استقلالية التفكير مع السياسة ، وذلك بغرض التخلص من السلطة الدينية العقائدية التى تغلغلت فى كل مكان . وعمدنا إلى فهم علمانى مطلق علّنا نتمكن من إقصاء القيم الأخلاقية الممثلة بالتفكير الدينى . وربما لم يكن هذا الأمر ممكن الحدوث فى العالم العربى ،

لعدم وجود تناقض جوهرى بين السلطة الدينية والسلطة السياسية وإذا واصلت أجهزة الإعلام ضخ المعلومات الخاطئة والمزيفة وأخبار العنف دون سواها . . وإذا استغرق الناس فى جهلهم كل ما يمت إلى العالم العربى بصلة ، فسيكون من العسير جدا أن يدرك الرأى العام الفرق بين حالة العنف غير المبررة ، والخصوصية الدينية لشعب ما . .» .

والمستشرق الهولندى «يوهانس يانسن» ، إذ يعترف بخوف متبادل بين الغرب والشرق ، يرى فى خوف الغرب من الشرق والإسلام خوفا غير مبرر . . بينما هناك مبررات لخوف الشرق من الغرب . . فخوف الغرب من الشرق هو «صناعة غربية» ، وسببه خشية الغرب آفاق وحدود الدين إذا هى تجاوزت آفاق وحدود مسيحيته . . رغم أنها آفاق خاصة بمجتمعات غير مجتمعاته . . أما خوف الشرق من الغرب – فى تقديرنا – فمصدره الواقع التاريخى والمعاصر للعلاقة بينهما :– «فالمجتمعات الغربية مبنية على علاقات مختلفة بين الدين والدولة . وعندما يسمع المواطن أن الديانات تلعب دورا واسعا وكبيرا فى الشرق الأوسط ، فإن ذلك يثير فيه مشاعر الحذر . وهكذا نجد أن الخوف عنصر متبادل ، فالأصوليون يخشون الغرب ، والغرب يخاف الأصولية» .

أما المستشرقة الإيطالية «دانييلا آمالدى» ، فإنها ترجع النظرة الغربية للأصولية الإسلامية ، إلى الموقف الأحادى الجانب – بسبب العجز عن الفهم أو عدم الرغبة فى الاستيعاب – وإلى

تبسيط وتسطيح المعرفة بهذه الظاهرة ، وهو ما يجعل الغرب يرى فى «المختلف» عنه «خطرا محتملا وسلبية مطلقة»! . . «فالغرب يميل إلى تسطيح وتبسيط الإشكاليات ، فيقع فى مطب قراءة آحادية الجانب لهذه الظاهرة ، ويفقد القدرة على (أو الرغبة فى) استيعاب أوجه الشبه أو التباين بين واقع وآخر فى العالم الإسلامى ، وبالتحديد بين مظاهر وتجليات «الأصولية» . ويؤدى ذلك إلى علاقة معرفية سطحية بالآخر ، علاقة يصبح معها «المختلف» ، بالضرورة ، مرادفا للسلبية المطلقة . . وإلى اعتبار كل ما ومن هو قادم من العالم الإسلامى خطرا محتملا» ! . .

وقريبا من هذا التفسير نجد رأى المستشرق الإيطالى «كلاوديو لوياكونو» . . الذى يرى أن جهل الغرب بجوهر الثقافة الإسلامية هو الذى جعله لايرى فى الظاهرة الإسلامية سوى العنف ، والطابع المعادى للغرب عند بعض الحركات الإسلامية . . بينما ينسى هذا الغرب آثار الخراب التى أحدثتها سياسته الاستعمارية فى عالم الإسلام . . «فالغرب يعرف القليل عن الثقافة الإسلامية ، وما يعرفه من هذه الثقافة لايمثل جوهرها الفعلى . هناك ، حتى فى صفوف أهل الاختصاص وأساتذة الآداب واللغة والإسلاميات ، من يشغل موقعه عن غير جدارة واستحقاق . وإذا ألقينا نظرة على الكتب المدرسية ، سنجد أن مؤلفيها بدأوا يهتمون بالعالم الإسلامى وثقافته فى وقت متأخر . هذا الجهل هو الذى حمل الغرب إلى التعاطى مع الحركات الأصولية من منطلق واحد فحسب ، إنه منطلق العنف . . وبطبيعة الحال ، يجرى التركيز على

الطابع المعادى للغرب الذى تتميز به بعض هذه الحركات ، فيما ينسى الغرب آثار الخراب الذى تركته سياساته الاستعمارية القديمة والجديدة . .» .

وإذا كان الحوار هو السبيل للفهم المشترك وللتعايش بين الحضارات ، فإن المستشرق الإيطالى «سلفاتورى بونو» ، يرى الغرب هو الرافض للحوار مع الحركات الأصولية . . والرافض للتقييم الموضوعى لأفكارها ، وهو معبأ سلفا ضدها . . «فالغرب ، كحكومات وكرأى عام ، معبّأ سلفا ضد الحركات الأصولية ، وليس مستعدا لمناقشة آرائها وطروحاتها ، كما أنه يرفض تقويم هذه الطروحات بشكل موضوعى» .

أما المستشرق الأمريكى «جون فول» ، فإنه لا يرى التناقض فى المصالح دائما بين الأصوليين المسلمين وبين الغرب . . بل قد تتطابق المصالح . . ويرجع سبب التوتر إلى علمانية الحكام الغربيين ، التى تصنع أزمة ثقة مع التوجهات الدينية . . وإلى معارضة الإسلاميين للحكومات التابعة للغرب . . «فالأصوليون العنيفون قد دخلوا فى صراعات مع مؤسسات وحكومات ثبت ولاؤها للغرب وأمريكا . لكن مصالح الأصوليين المسلمين تتطابق فى بعض الأحيان مع مصالح الحكومات الغربية - لنأخذ كمثال معارضة الغزو السوفياتى لأفغانستان - ما يجعل التعاون فى هذه الحالات ممكنا . لكن ، على وجه العموم ، وفق المنظورات العلمانية التى تطغى على آراء صانعى السياسة الأمريكيين والأوربيين

الغربيين ، فإن الأصوليين ، على اختلاف نماذجهم ، ليسوا أهلا للثقة . والعكس هو الآخر يبدو صحيحا ، أى أن قادة الأصوليين لا يثقون بحكام الغرب العلمانيين . وفى هذا السياق ، أدى صعود الأصوليات إلى جعل «علاقات الشرق بالغرب» أكثر تعقيدا ومصدرا لخطر محتمل» .

هكذا انعقد إجماع المستشرقين على أن «الخطر الإسلامى» على الغرب هو «وهم» و «هذر» و «كلام فارغ» و «بعبع» صنعه الإعلام الغربى . . والصهيونية . . والجهل بجوهر الثقافة الإسلامية . . وبتميز علاقة الدين بالسياسة والدولة فى النموذج الإسلامى عنها فى النموذج المسيحى الغربى . . ونبه كثير منهم على أن وراء ذلك كله مؤامرة غربية تستهدف صناعة «عدو» يحل محل «إمبراطورية الشر الشيوعية» . .

اللهم إلا المستشرقة الألمانية «أردموته هيللر» ، التى قالت إن الأصوليين المسلمين خطر كبير على الأمن والسلام ، وعابت على الغرب أنه غير موحد إزاء هذا الخطر؟! . . فعندها «أن الغرب ليس موحدا ، ولا يعرف إجماعا حول هذه المسألة . فالأمريكيون مثلا ، اعتبروا الحركات الأصولية أثناء التدخل السوفياتى فى أفغانستان ظاهرة إيجابية جدا . أَعتبرُ الأصوليين يشكلون خطر كبيرا على الأمن والسلام ، وعلى العلاقات بين الشرق والغرب» .

ونحن إذا تجاوزنا عن هذا الرأى ، الذى انفردت به «اردموتة هيللر» ، سنجد أن المستشرقين الذين استطلعت (الوسط) آراءهم

فى علاقة الحركات الإسلامية بالغرب؟ وخطرها عليه؟ . . قد قاموا «بتشريح الغرب» لا بتشريح الحركات الإسلامية؟! . .

وهى شهادة فخار لموضوعية هؤلاء المستشرقين . . وخدمة كبرى قدمتها (الوسط) إلى القراء العرب عندما وضعت بين يديهم هذا «الملف» ، الذى نرجو أن يصحح مفاهيم الكثيرين من مثقفينا وإعلاميينا المسلمين؟! . .

٤

هل هناك مستقبل للصحوة الإسلامية؟!

في «ملف» (الوسط) عن «الأصولية الإسلامية» .. والذى استطلعت فيه آراء ثلاثين مستشرقا ، يمثلون دول وتيارات ومذاهب وأجيال الاستشراق الغربى المعاصر .. وقف هؤلاء المستشرقون ، فى ظاهرة المد الإسلامى وحركاته ، أمام قضايا رئيسية خمسة .. قضية مصطلح «الأصولية» ومدى تطابق معانيه الغربية السلبية مع منطلقات وغايات وسمات الحركات الإسلامية؟ .. وقضية الأسباب التى أفرزت وأبرزت هذه الحركات فى العقود الأخيرة على وجه الخصوص؟ .. وقضية الحقيقة والوهم فى الكلام الشائع الآن عن «التهديد الإسلامى للغرب»؟ .. - ولقد تناولنا هذه القضايا الثلاث فى الحلقات الثلاث التى سبقت من دراستنا هذه لهذا «الملف» ..

والآن .. وفى هذه الصفحات ، نقف أمام رؤية المستشرقين لقضية «الوحدة .. والتنوع» فى فكر وتوجهات الحركات الإسلامية .. وقضية «المستقبل» ، وهل لهذه الحركات منه نصيب؟ .. وإذا كان ، فبأية شروط؟؟ ..

الوحدة.. والتنوع:

على الرغم من أن هذه القضية - قضية الوحدة والتنوع فى

توجهات الحركات الإسلامية - لم تكن موضع سؤال مستقل فى «ملف» (الوسط) . . إلا أن جميع المستشرقين الذين التفتوا إليها فى إجاباتهم قد اجتمعت آراؤهم على أن الحركات الإسلامية المعاصرة ، وخاصة فى العالم العربى ، ليست كتلة واحدة صماء . . ومن الخطأ اختزالها فى تيار «العنف الراديكالى» . . فهى ظاهرة فكرية وحركية شديدة التنوع - مع اجتماعها فى إطار المرجعية الإسلامية العامة والمقاصد الإسلامية العامة - . . فهى تتنوع بتنوع واقع البلاد الذى تعمل فيه كل حركة من هذه الحركات . . وبتنوع التحديات التى تجابهها هذه الحركات . . وباختلاف المرجعيات المذهبية لهذه الحركات - من «سنّيّة» و «شيعيّة» . . و «تجديد» و «تقليد»- . وبتنوع مناهج العمل المعتمدة فى عمل كل حركة من هذه الحركات . . فهناك الحركات التى تتخصص فى «الدعوة» الخالصة لإضاءة القلوب بنور الإسلام . . وحركات العمل السياسى والاقتصادى لتغيير الواقع فى هذه الميادين وجمعيات وجماعات العمل الخيرى والاجتماعى . . وهناك الحركات التى ارتضت منهاج التعددية ، والعمل وفق قوانين «لعبتها» . . وهناك ، أخيرا ، حركات العنف والراديكالية السياسية والإرهاب . .

فهى حركات ، وإن انطلقت من المرجعية الإسلامية ، إلا أن فهمها للإسلام ، ومنهاج عملها له ، والجوانب التى تركز عليها من منهاجه الشامل ، قد أوجد فيها العديد من «ألوان الطيف الإسلامى» ، وذلك فضلا عن «ألوان طيف الواقع المتنوع» الذى تعيش فيه وتعمل على تغييره هذه الحركات . .

وفى تقرير هذه الحقيقة - التى يغفل عنها - أو يتغافل - كثيرون - يشير المستشرق الإيطالى «كلاوديو لوياكونو» فيقول : «إن الحركات الإسلامية متنوعة بتنوع واقع بلدانها . . ومن الضرورى التمييز فيها بين أولئك الذين يعتمدون على «الدعوة» الخالصة ، محاولين إبقاء نور الدين الإسلامى مضيئا فى قلوب المسلمين . . ومن يمكن اعتبارهم «ملتزمين ومنظمين سياسيا» ، وهم الذين يولون اهتماما أكبر للقضايا والمشاكل ذات الطابع السياسى والاقتصادى . ومن بين هؤلاء مجموعات تعمل بشكل حازم ضد حكومات بلدانها ، وأخرى ركزت اهتمامها على العمل فى المجالات الاجتماعية . وتوجد أيضا منظمات اختارت الإرهاب أساسًا لعملها السياسى ، فحددت لنفسها بذلك موقعا خارج التقاليد المعتدلة التى اتسمت بها الحركات «السّنّيّة» عبر التاريخ . كما توجد حركات أخرى ارتضت «قوانين اللعبة» ، دون أن يفوتها التركيز على المسائل الاجتماعية الضرورية لإحداث تغييرات فى الواقع المتنوع الألوان والاتجاهات . وينبغى التذكير بأن هناك اختلافات جذرية بين الأصولية «السُّنّيّة» والأصولية «الشيعية» . .» .

ويهتم المستشرق الإنجليزى «فردها ليداى» بالإشارة إلى «الجامع» الذى يجمع هذه الحركات ، فيرى أنها لا تقف عند «الماضى والتقاليد» ، وإنما تعيد تفسيرهما كى تقدم برنامجا للحاضر والمستقبل . . ولا تقف عند «التبشير الدينى» ، وإنما تتغيا أهدافا سياسية واجتماعية . . وأنها جميعها تسعى لامتلاك السلطة

السياسية . . فهذه «جوامع» تحتها تنوع واختلاف . . «إن هذه الحركات تختلف بعضها عن بعض ، إلا أنها تشترك فى أمور ثلاثة :

أولا: لا تمثل الحركة محاولة لإدخال الناس فى دينها ، بل لتعبئة هذه المجتمعات الدينية بقصد بلوغ أهداف سياسية .

ثانيا: فيما تستعين الحركة بالتقاليد ، فإنها تعيد تفسير الماضى والتقاليد الدينية كى تقدم برنامجا سياسيا معاصرا عن التنمية الاقتصادية والاستقلال وقضايا اجتماعية .

ثالثا: أهم ما يعنى هذه الحركات هو الوصول إلى السلطة السياسية والاحتفاظ بها» .

أما المستشرق الفرنسى «دومينيك شوفالييه» ، فيميز فى هذه الحركات الإسلامية بين «المتطرفين» و «المعتدلين» ، كما يميز فى عالم الإسلام بين «المسلمين» وبين «الإسلاميين» ، فيقول : «إن الحركة الإسلامية ليست بالضرورة حركة متطرفة . وأعرف مثقفين إسلاميين وأصوليين متمسكين بإيمانهم وقيمهم ، لكنهم قادرون على الحوار ، ومستعدون للسجال مع الذين لا يوافقونهم الرأى ، سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين ، وهم ليسوا أبدا انفعاليين كما يظن بعضهم . .» .

ويرى المستشرق الروسى «آرتور سعادييف» أن فى الحركات الأصولية - مع تجانسها الأيديولوجى - المعتدلون . . والراديكاليون . . كما يختلف تركيز كل حركة باختلاف التحديات

التى تمثلها الأنظمة الحاكمة فى بلادها . . «فى الحركات الأصولية اتجاهات معتدلة وراديكالية . . إنها متجانسة أيديولوجيا ، واختلافاتها تعود فى الدرجة الأولى إلى طابع الأنظمة الحاكمة التى تعارضها . . ففى سورية هناك انتقادات للاتجاه «العلمانى» . . وفى مصر معارضة للعلاقة بالغرب . . وفى الجزائر هجوم على النهج الاقتصادى والاجتماعى المعادى للشعب . .»

ويتفق فى ذلك المستشرق الهولندى «رودولف بيترز» ، الذى يضيف ، فى ميدان التنوع لهذه الحركات - غير «الاعتدال» و «التطرف» - المتحررون ، الذين يدافعون عن الإسلام ، وفى ذات الوقت يحاورون الغرب ، ولا يرفضونه بإطلاق وتعميم . . «فلا يمكن الحديث عن أصولية إسلامية فى شكل عام . هناك تيارات معتدلة ، وأخرى متطرفة تؤمن بممارسة العنف . . ومنذ مرحلة مبكرة ظهرت أصولية تحررية ، دافعت عن الإسلام ، وردت على كثير من المقولات التى تنظر إلى الإسلام بوصفه دينا غير متسامح . ودعا ممثلو هذا الاتجاه إلى الحوار مع الغرب ، وإن لم يكن مباشرة ، كما فعل محمد عبده وجمال الدين الأفغانى ورشيد رضا وقاسم أمين» .

ويشير المستشرق الأمريكى «روجر أوين» إلى دور اختلافات الواقع الذى تعمل فيه هذه الحركات فى تنوعها . . «فكل حركة لابد أن تختلف كثيرا عن الحركات الأخرى ، من حيث ممارستها السياسية الفعلية ، مادام مستقبلها مرتبطا حكما بالتطورات

السياسية فى البلاد التى يعيش ويعمل فيها أغلب أعضائها . وتكاد هذه التطورات تكون العامل الوحيد المؤثر فى مستقبل الحركة . .» .

أما المستشرق الأمريكى «ريتشارد بوليت» ، فيهتم بالإشارة إلى «موازين التنوع» فى هذه الحركات . . فيرى أن جماعات العنف أقلية يضخم الإعلام صورتها . . بينما جوهر الحركات الإسلامية وأغلبيتها ملتزمون ، سلميا ، بمبادئ الدين فى سلوكهم اليومى ، وفى حياتهم الخاصة ، وممارساتهم الاجتماعية ، وهم أصحاب موقف نقدى للواقع الذى يعيشون فيه ، وأهداف اجتماعية يسعون إلى تحقيقها . . ويجمعهم جميعا : العمل على إعادة تأسيس نظام اجتماعى ونظام سياسى على قواعد الإسلام . . فهذه الحركات «يحركها طموح مشترك إلى إعادة تأسيس نظام اجتماعى ونظام سياسى قائمين على الإسلام . . والحركات الإسلامية تشتمل على مجموعات وفلسفات عديدة ومتناقضة . إذ نجد فى صفوف الإسلاميين بعض القتلة وعددا محصورا من المسلحين ، هم الذين يحظون بالتغطية الإعلامية الأوسع ، إضافة إلى عدد هائل من الأفراد العاديين ، الذين يطبقون مبادئ الدين ، بشكل سلمى ، على مستوى سلوكهم اليومى ، وفى حياتهم الخاصة وممارساتهم الاجتماعية والدينية . وبين هذين الطرفين النقيضين ، تأتى الأحزاب السياسية ، والمناضلون ضد الديكتاتورية ، ومجموعات تعنى بخير المسلمين . . ويمكن للمرء أن يعترض قولا وعملا على

الأقلية العنيفة التى تحتويها الحركة الإسلامية ، دون أن ينتقص ذلك من احترامه لجوهر تلك الحركة ، وخاصة على صعيد الدور النقدى الذى تلعبه ، أو على صعيد الأهداف الاجتماعية التى تسعى إليها . .»

هكذا أبصر المستشرقون «جامع الوحدة» ونطاق «التنوع» فى الحركات الإسلامية المعاصرة . . ولم يروا «الأصولية» الإسلامية كتلة واحدة صماء! . .

المستقبل.. والحركات الإسلامية:

ولم يقف المستشرقون من الظاهرة الإسلامية عند تحليل واقعها الراهن فقط . . وإنما تحدث كثيرون منهم عن مكانة وموقع هذه الحركات الإسلامية فى خارطة مستقبل العالم العربى والإسلامى . . وفى هذا الإطار تحدثوا عن خطأ تجاهل الطرف الإسلامى - وهو طرف فعال - فى الحوار الذى لابد وأن تشارك فيه مختلف التيارات ، لتخفيف التوتر القائم الآن . . وعن ضرورة استبعاد العنف ، بإطلاق ، من قبل كل الأطراف . . وعن ضرورة اعتماد التعددية الحضارية - فى العلاقة بين الإسلام والغرب - وذلك لنزع فتيل نزعات الحروب الحضارية والصليبية . . وأكد بعض المستشرقين على أهمية الحركات الإسلامية فى مستقبل العالم العربى والإسلامى ، لأن المستقبل - برأيهم - هو للتيارات ذات الرؤى الإيمانية والدينية . . والإسلام هو محور النهضة ومرجعيتها فى العالم العربى والإسلامى . .

ومن الشروط التى رأوها لازمة كى يكون للحركات الإسلامية فاعلية فى مستقبل أوطانها ومجتمعاتها : ضرورة العمل على كسب ثقة الجماهير . . وتحسين صورة الطرح الفكرى . ، والعدول عن سبل وآليات الفتن فى تحقيق المقاصد . . وتأسيس العمل السياسى الإسلامى على النهضة الدينية والروحية ، استثمارا لحيوية الإسلام ، الذى هو أكثر الأديان حيوية ، والذى يحتاج إلى نهضة دينية ، وليس إلى مجرد «إسلام سياسى»! . .

ومن الآليات التى أشاروا بها ، لإخراج بعض الإسلاميين من «العزلة الماضوية» : دفعهم إلى أن يجيبوا على أسئلة العصر ومشكلات واقعه . . ففى ذلك اكتشاف وتنمية للأرض المشتركة بينهم وبين التيارات الفكرية الأخرى . .

كما نصحوا الذين يريدون سحب البساط من تحت أقدام الحركات الإسلامية مستقبلا ، بأن يحلوا المشكلات والأزمات التى استدعت البديل الإسلامى ، بعد أن فشل العلمانيون - بل وصنعوا - هذه المشكلات والأزمات! . .

فعلى سبيل المثال ، رأى المستشرق الأمريكى «جون إيسبوسيتو» أن الحركات الإسلامية طرف فاعل فى المجتمعات الإسلامية ، تشارك فى الحوار حول شئونه ، ويتوقف حجم نصيبها من النجاح أو الفشل على كفاءة أدائها . ، وآفاق الحرية فى مجتمعاتها . . ذلك «أن الجدال سيتواصل فى المجتمعات الإسلامية ، فى خصوص قضايا تتعلق بالدين ، والهوية الوطنية ، والشرعية والمشاركة

السياسية أو تطبيق الديمقراطية . . وستكون الحركات الإسلامية طرفا فى النقاش حيث، يسمح لها أن تساهم فيها . وسيلاقى الإسلاميون النجاح أو الفشل ، شأنهم شأن أى حزب سياسى . .» .

أما المستشرق الإيطالى «كلاوديو لوياكونو» . . فينصح بضرورة «الحوار العقلانى» بين مختلف الفرقاء ، لحل كل المشكلات . . إذ «لابد من إعلاء صوت العقل والحوار . وهى مهمة عسيرة وصعبة للغاية ، تحتاج إلى عمل متواصل ورغبة صادقة . .» . .

ومعه - فى أهمية الحوار - تقف المستشرقة الألمانية «جودرون كرامر» ، التى تقول : «أعارض استعمال العنف ضد الحركات الأصولية . . وأرى أن الحوار المفتوح مع هذه الحركات هو الحل الوحيد القادر على أن يخفف من حدة التوتر ، وأن يعطى لجميع القوى السياسية - داخل النظام وخارجه - الفرصة اللازمة للتفكير والتأمل والتحليل . .» .

أما المستشرق الأمريكى «جون فول» ، فيعظم من مكانة الحركات الإسلامية فى مستقبل مجتمعاتها ، لأن المستقبل هو لحركات الرؤى الدينية ، وخاصة بعد تراجع العلمانية ، وتضاؤل فعاليات برامجها . . فالحركات الإسلامية «تتوقف درجة نجاحها فى صياغة مستقبلها ومستقبل مجتمعاتها ، على قدرتها على نيل تأييد شعبى وتحقق تحسينات ، بدلا من التسبب فى فتنة مدمرة . وعلى وجه العموم ، سيكون للرؤى الدينية الشاملة تأثيرات مهمة فى المستقبل ، مع تضاؤل فعالية البرامج العلمانية الحديثة . .» .

ومع هذا الرأى يقف المستشرق الأمريكى «ريتشارد بوليت» الذى يرى الإسلام هو المرجعية المرشحة للمشروع النهضوى ، فى العالم العربى والإسلامى . . «فلا مفر من أن يلجأ المجتمع العربى والإسلامى إلى اعتماد الإسلام محورا له من جديد . .» .

ويعلق «جاك بيرك» نجاح الحركات الإسلامية فى صياغة مستقبل مجتمعاتها على إقامتها مشروعها السياسى على الإحياء الدينى والنهضة الروحية الإسلامية . . وعدم الوقوف عند البرنامج السياسى فقط . . وعنده «أن الحركات الإسلامية محكومة بالفشل إن لم تكن مؤسسة على نهضة دينية ، وما لم تؤد إلى حركة شاملة (جامعة) فى المجتمع . إنها إذا انطلقت من نهضة روحية لأمكنها أن تبنى ، شيئا فشيئا ، نهضة أخلاقية للمجتمع المسلم . وفى هذه الحالة توفر الفرصة لبناء المجتمعات الإسلامية بناء قابلا لأن يدوم . فالإسلام طاقة وحيوية تدعو إلى الاحترام ، إنه دين حى جدا ، وربما أكثر من الأديان الأخرى ، ومن هنا حاجته إلى نهضة دينية . .» .

أما المستشرق الألمانى «ستيفان فيلد» ، فإنه يدعو إلى دفع الأصوليين المتطرفين لمواجهة العصر ، وذلك بتقديم أجوبة واضحة على المسائل المطروحة . . ومساعدة المثقفين العرب المستنيرين - بواسطة أوربا - على بلورة حلول للمشكلات . . والعمل على ردم الهوة بين الشرق والغرب . . «فعلينا أن نطالب الإسلاميين المتطرفين بتقديم أجوبة واضحة على المسائل المطروحة . أى أن

ندفعهم إلى مواجهة العصر . وعلى أوربا أن تساعد المثقفين المستنيرين فى العالم العربى على البحث عن حلول . . وأن تتيح لهم فرصة التعرف بعمق إلى حضارتها وثقافتها وعلومها ، حتى لا تتسع الهوة بين الشرق والغرب من جديد ، وتنفتح الأبواب على مصراعيها أمام أولئك الذين يتحدثون طول الوقت عن حروب صليبية . .» .

وإذا كان هذا الرأى قد حبذ تحسن «الحالة العلمانية» بواسطة أوربا . . فإن المستشرقة الألمانية «أردموتة هيللر» قد وضعت شروط تحسين هذه «الحالة العلمانية» حتى تستطيع مقاومة المد الأصولى . . فلابد - برأيها - من تغيير العوامل التى صنعت أزمة النظم الحاكمة ، وذلك بإقامة العدل . . والقضاء على الفساد والرشوة . . وإصلاح التعليم . . وتحقيق الديمقراطية . . وإعادة الاعتبار إلى المثقفين . . وإقامة مجتمع مدنى حقيقى . . «فليس هناك ، لمقاومة المد الأصولى ، سوى طريقة واحدة : توزيع خيرات البلاد توزيعا عادلا ، والقضاء على مظاهر الفساد والرشوة ، وإصلاح مناهج التعليم ، وتحقيق الديمقراطية - ولو بصفة نسبية - وإعادة الاعتبار إلى المثقفين ، وتوفير المستلزمات الأساسية لقيام مجتمع مدنى حقيقى» .

هكذا تحدث المستشرقون عن المستقبل . . وعن مكانة الحركات الإسلامية فى هذا المستقبل . . وعن شروط تخفيف التوتر بينها وبين تيارات الفكر الأخرى . .

لكن المستشرق الألمانى «أودوشتا ينباخ» قد انفرد بتجريد الحركات الإسلامية من أى نصيب فى هذا المستقبل . . فهى حركات ضعيفة . . تعانى من فراغ نظرى . . وستنصرف عنها الجماهير عندما تكتشف أن وعودها ليست أكثر من تهويمات ، فتقف وحيدة عارية على قارعة التاريخ! . . «إن هذه الحركات لا يمكنها أن تجد ، لا فى الماضى القريب ولا البعيد ، نظاما إسلاميا يمكنها أن تقتدى به ، وتستمد منه حلولا جذرية للمشاكل المطروحة بحدة . . وهى تعانى من ضعف عميق ، ومن فراغ نظرى كبير . . وحين تدرك الجماهير أن الحلول التى تلوح بها الحركات الإسلاموية ، ليست سوى تهويمات . . فإنها سوف تتخلى عنها ، وتتركها وحيدة وعارية على قارعة التاريخ» . .!

* * *

على هذا النحو تناول المستشرقون الثلاثون أخطر ظواهر العصر الذى نعيش فيه . . الحركات «الأصولية» الإسلامية . . فعرضوا ، من خلال الإجابة على أسئلة (الوسط) ، لمختلف جوانب هذه الظاهرة . . الأمر الذى جعل من هذا «الملف» ، الذى نشرته (الوسط) - فى أعدادها السبعة (٩٦ - ١٠٢) - (٢٩ - ١١ - ١٩٩٣م - ١٠ - ١ - ١٩٩٤م) - مرآة الاستشراق الغربى لأخطر ظواهر الشرق العربى والإسلامى .

إنه جهد صحفى متميز . . حبذا لو تحول إلى كتاب يضاف - فى المكتبات - إلى ما فيها عن الظاهرة الإسلامية من مؤلفات .؟

الفهـــرس

الموضـــــــوع — رقم الصفحة

نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

طبع بمطابع الشركة بمدينة السادس من أكتوبر

إلى القارئ العزيز . .

فى هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربى» هو تنوير علمانى ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث . .

فإن «التنوير الإسلامى» هو تنوير إلهى ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامى للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التى يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامى المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشرى .
- د . حسن الشافعى
- د . محمد سليم العوا .
- ا . فهمى هويدى
- د . جمال الدين عطية .
- د . سيد دسوقى
- د . كمال الدين إمام .

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين . .

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر